وكانت عيونها زرقاء

عنـوان الكتـاب: وكانـــت عيونهـــا زرقـــاء
الموضـــــوع: روايـــــــــــــــــة
التـأليـــــف: معـــــــاذ خيـــــــري
مراجعــة لغويــة: مهـــــــا الســـــــيد
الإخــراج الفنــيّ: عمـــرو ســـالم ســـواح
تصـميم الغـلاف: فـــــارس إيهـــــاب
رقـــم الإيـــداع: ٢٣٩٥٣ /٢٠١٩
التـرقيم الـدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٣٥-١٦٧-٥
الناشر : زحمة كتاب بالتعاون مع اسكرايب للنشر والتوزيع
اسكرايب للنشر والتوزيع :Facebook Page
Email:scribe20199@gmail.com
Tel: 00201005079256

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار
اسكرايب للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

رواية

وكانت عيونها زرقاء

معاذ خيري

إلى مَن أخذني في بَرْدِ الشتاء تحتَ عباءته لأصلي الفجر في جماعة.

إلى السيدة التي علمتني أطب مطعمك تكن مستجاب الدعاء.

إلى أعظم نعم الله وأحبها لقلبي.

إلى أبي وأمي.

إلى زوجتي.

(صَيِّبُ السَّمَاءِ)

تقف هذه الصغيرة (لانا) وسط بكاءٍ منهمرٍ من السماء، تنتظر والدها العائد من الصيد بعد أن أسدل الليل ستائره وأطفأ قناديله، تتلو صلاةً لا تفهمها، وتتلعثم شفتاها بما لا تعي عساه يعود سالمًا.

تنظر إلى الأشجار المتشابكة التي تحجب عنها السماء في ظلماتٍ بعضها فوق بعضٍ، خلفها كوخٌ صغيرٌ مصنوعٌ من الأشجار والغصون اللينة لونه بُنيّ غامق، ومن الأعلى بعض الغصون الخضراء تبدلت ثم بُليت .

وعلى يمين الكوخ قدورٌ راسيات، عالية، سوداء قاتم لونها، مصنوعة من الفخار، تتسع لطهي حيوانٍ بأكمله؛ كقردٍ ضخمٍ، أو فيلٍ صغيرٍ، أو أحد البشر الغرباء عن الغابة، وعزاؤها أنها مِلْكٌ عامٌ لكل القبيلة فهي تحترق ليل نهار دون أنينٍ ولا صريخٍ مسموعٍ.

تنام إلى جوارها أمها (لي) ماسكةً الرمح الأخير الذي كانت تصنعه لزوجها (جوبا)؛ فمَوْسم الصيد يلزمه عددٌ كبيرٌ من الرماح، وفي يدها الأخرى خنجرٌ كالصراط المستقيم شفرته، تنام كعادتها وهي تجلس القُرفصاء، بعد انهماكٍ شديدٍ في تقطيع الأشجار وتنظيفها من الأوراق وتنجيرها وأخيرًا تسهيمها وترميحها.

كانت (لي) من أجمل نساء القبيلة؛ قوامها فاتنٌ، خصرٌ نحيفٌ، ونهدان عاليان، مستديران، وشعرٌ كأمواج البحرالهائج في تجعده، عيونها متسعة كالمها، أنفها مطموسٌ كقبيلتها ولكن له أرنبةً مدببةً زادته جمالًا،

وعنقٌ ليس بالنحيف كالمزمار ولا الغليظ كإناء القبيلة، ولكنه يصل جسدها في انسيابية كعُنق الإبريق الذهبي الفاخر، تغطي جسدها برقاع الجلد من الأسفل ومن الأعلى فروة ذئبٍ ينسدل على ثدييها فيغبطه مَن يراه أهداها لها زوجها (جوبا) في المَوْسم الماضي.

استيقظت (لي) الجميلة على صوت ابنتها (لانا) وهي تتلو الصلوات؛ حتى يعود (جوبا) و(إيفي)، وذهبت لتشعل النار على القِدر فَهُمْ يضعون الأخشاب الغليظة المستديرة حول القِدر وكأنهم يمنعونه من الهروب من النيران المستعرة، فتراها وترى أنينه منها ولا تسمع له همسًا، ولكن كلما أوقدوا نارًا أطفأها الصَّيْب وازداد المكان ظلماتٍ ورعدًا وبرقًا إذا أخرجتَ يدك لا تكد تراها.

ازداد البرق واخترق الأشجار كاد يخطفهم الأبصار، فعادت إلى الكوخ مسرعةً حاملةً (لانا)، حاضنة ارتجافها ليس زمهريرًا ولكن القلق قد طرق منهم الحناجر،

تنظر من طرفٍ خفي على هذا الطريق الحالك ظلماته؛ فأشجاره عانقت عنان السماء طولًا ورسوخ الجبال ثبوتًا ومع هذا فقد بدأت تترنح في صوت عويل تجزع منه القلوب، لا توقفه صلوات ولا تهدئه هذه التضرعات المصحوبة بالمستجير من الهَوْل، قد تسمع أو يُخيل لك صراخ الأطفال في الأكواخ المجاورة وعُواء الذئاب على قمم الهضاب المتناثرة حول القبيلة، سماء ابتلعت نجومها وقمرها في غياهب السحاب قد اندثر، برقٌ يخطف الأبصار، ورعدٌ يصم الآذان وهوْلٌ يشعل رأس الجنين شَيْبًا إذا لم يخرجه إلى الدنيا.

كادت (لي) تعانق (لانا) بأضلعها ولم تشعر ابنتها رغم ذلك بالأمان، يحميهم ذاك الكوخ الصغير وكادت أمواج الريح تحطمه، أو تغرقه شلالات الماء المتساقطة عليه من أعلى الأشجار، ولم يتماسك كوخهم إلا لحداثته ف(جوبا) و(إيفي) يجددانه كل شهر.

اشتد غضب الطبيعة عليهم كأنها في هياج أمٍ فقدت ابنها ذبيحًا على يد زوجها؛ عندها أُذهِلَت (لي)عمّا أرضعت وكأنها في قيامة تحيا، في حالة سكرٍ تترنح كمَن شرب نبيذًا مخمورًا لسنين، فهي تسمع أصواتًا مختلطةً ولكن جميعها تستغيث وكلٌ على شاكلته؛ فحشرات تهمس، وتنشب، وتصدع، وأفاعٍ فحيحها يستغيث ويزيد (لي) رعبًا، وسكنت الطيور فلا تدري هاجرت، أم ضاع صوتها حائرًا، وما هي إلا دقائق وبدأت السماء في الإقلاع، والأرض تبتلع ماءها، وغِيض الماء، وسكنت الأصوات في انخفاضٍ متدرجٍ، فعادت الأفاعي عن تضرعها، والحشرات عن التسبيح، وسكت الذئب عن العُواء، وهدأ صراخ الأطفال، وصمت المكان فلا تسمع إلا همسًا.

بدأ الأمان يطرق قلب (لي) فأخرجت ثديها المستديرالقاتم لونه بالزرقة، وأخرجت حلمته السوداء بين السبابة والوسطى واضعةً إياها في ثغر (لانا) التي على وشك إكمال العامين، وإذ بأحدهم يطرق باب الكوخ المصنوع من الجلد بكل قوةٍ فتمَلّك الرعب من قلب (لي) وكاد ثديها يجف لبنه، ودقت الرجفة جسدها فلم تتحرك رعبًا!!!

﴿ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ ﴾[١]

في يومٍ مشرق صباحه يخرج (جوبا) و(إيفي) للصيد يسيران في تهادٍ بين الأشجار العالية؛ ذات الغصون الكبيرة، والأوراق العريضة، تتخللها الشمس بسهامها فتسقط في دوائر ذهبيةٍ على وجوههم في طريقهم إلى كوخ الكاهن الأعظم، الذي يتحكم في أرزاقهم وأعمارهم وأمراضهم؛ فهو يتحدث إلى الإله دون حجابٍ، ونائبه في الأرض أيضًا.

وقفا يحملان القرابين من صيد الأمس في صفٍ طويلٍ مختلطٍ من قبيلتهم وآخرين من قبائل أخرى، ينتظرون الوصول إلى الكاهن الأعظم؛ فهم يقدمون أطيب اللحوم، وأفضل الجلود في كامل الخضوع والانكسار في ركوعٍ تحت قدمه، فإن وطأ رؤوسهم بقدمه حلّت لهم البركة، وإن لم يفعل كانت الطَّامة الكبرى، فسيخبر الرب أن يصيبهم بالأوجاع والأسقام ولربما بالانتقام، لكن (جوبا) و(إيفي) قد حظيا بالرزق في ذلك اليوم وخرجا فرحيْن؛ فقد وطأ الكاهن الأعظم رأسيهما بقدمه المباركة، يحمل كلاهما رمحه وسهامه تحيطهم الأشجار من كل مكانٍ، وتصل الحشائش إلى خصر(جوبا) وصدر(إيفي) فقد كان (جوبا) طويل القامة، عريض الكتفين، منتفخ الصدر في قوةٍ، ضيق الخصر، شاحب اللون كالأسود المائل للزرقة، ضيق العينين في حدة، قصير الشعر ورأسه به من

---

[١] الزلزلة: ٢.

الفراغات الكثير، مطموس الأنف، منتفخ الشفاه على عكس (لانا) و(لي)، لا يرتدي سوى خرقةٍ يواري بها سوأته.

يتحسس ما بين الحشائش بأصابع قدميه؛ لعله يجد ما يغنيه وجبة الإفطار من أفاعٍ، أو قوارض، أو حتى نمل أحمر، فله مذاق لذيذ ورائع ولكن إن وجد بيته، أو دودة قَزَّ على غصنٍ تكون رطبة يحلى بها ثغره، ويبحث بقدمه على أثر نمرٍ، أو ذئبٍ، ويَحْذَر أيضًا من فخٍ صنعه صياد آخر، أو صنعه هو ونسيه فالأصابع عيون الظلام.

رأى (إيفي) أثر أرنبٍ بريّ فتقفى أثره في هدوءٍ تامٍ، وأشار ل(جوبا) بالصمت، واستعار حركة السلحفاة، وعيون الصقر، ودهاء الذئب، وأخرج سهامه من جُعبته ووضعها في قوسه، ورأى (جوبا) الأرنب فأشار إلى (إيفي) بالسكون، وما بين الوقوف والقُرفصاء كانا يتحركان ببطءٍ شديدٍ، سكن الأرنب يأكل من خَشاش الأرض وفي صمتٍ دفين سحب (جوبا) وتر قوسه للخلف موجهًا سهمه نحو الأرنب، ويترك سهمه فينطلق بسرعته إلى فك نمر قد سبق سهم (جوبا) نحو الأرنب في انقباضٍ قوي وبقفزه هِرّ خفيف الوزن، يجري (إيفي) نحو والده مسرعًا حاميًا له مستأمنًا به، يأخذ (جوبا) رمحه وبكامل قوته يلقيه في بطن النمر فلم يتأثر، بل ترك الأرنب من بين فكيه وعاد إلى (جوبا) مهاجمًا فريسته الجديدة، تصبب العرق من (جوبا) بنظر المَغْشي عليه من الموت و(إيفي) كذلك، ولسان حالهما يقول بقلوبٍ واجفةٍ: (إنها لزجرة واحدة).

أمسك سهمه واستعد لهجمه النمر المسرع وعندما قفزعليهما تحرك كل منهما في اتجاه، فذهب إلى جوبا لا أدري هل لأنه الأكثر لحمًا أم ثأرًا

لضربه الرمح، قاوم (جوبا) وبدأ في تفادي ضربات النمر بل وضربه بقدمه في وجهه ولكن لا جدوى، و(جوبا) تارة يقفز على شجرة و تارة يضرب النمر، ولكن الأكثر كان يتلقى ضرباتٍ قاسيةً إلى أن نزف جُرحه الكثير وسال الدم من جسده شلالًا، وقد رأى الأشجار تطوف حوله في تمايل، واقترب النمر منه!!! تهاوى جسد (جوبا) مترنحًا، ووضع النمر قدمه على (جوبا)، ثم سال لعابه على وجهه وفتح فكيه على مصرعيهما كأنما سيلتهمه جملة واحدة، ولكن سبقه (إيفي) بسهمٍ قوي هتك أمعاء النمر فسقط صريعًا، وصار (إيفي) في قمة الحزن على والده يحاول أن يعيده لوعيه، وفي هذه اللحظة فُتحت أبواب السماء بماءٍ منهمرٍ، وكأنما فُجِّرت الأرض من تحتهما عيونًا فقام (جوبا) يبكي صامتًا ماسكًا يد (إيفي)، ضعها على ذراعي وتشبث به (هكذا قال إيفي). ولكن كيف لهم أن يعودا بهذه الفريسة إلى الكوخ في هذا المطر؟! (وجوبا) جريح جالسًا تحت شجرة عريض جزعها يضع رأسه وظهره عليها كأنه يستحضر منها الأمان، و(إيفي) مستظلٌ بإحدى أغصانها يجلس أمامه مواسيًا، بدأ (جوبا) يتلو الصلوات بحركاتهم المعهودة كما علمهم الكاهن الأعظم " لماذا تصلي ولم يمنعك النمر؟، مع أنك أعطيته أفضل الصيد، وأيضًا باركنا بطقوسه صباحًا ووعدنا بالخير والعافية" هكذا قال (إيفي) مستنكرًا وبنبرة حادة، وفجأة أغلقت السماء أعينها وكفكفت دموعها وقاما مسرعيْن، ثم طلب (جوبا) من (إيفي) أن يتسلق هو فيقطع بخنجره غصون لينة؛ حتى يجرا بها النمر إلى القبيلة، صعد (إيفي) وأمسك خنجره وبدأ في قطع الأغصان ثم جذب غصنًا لكي يقطعه وإذ بأفعى يزيد طولها عن القدم، وفحيحها

مرعب كشكلها بُنيّة اللون من سلالة ذات الأجراس، تصدر صوتًا بجرسٍ في ذيلها تقشعر منه الأبدان، يتقاطر السُّم من نابيها!!!! يضع (إيفي) خنجره في عنقها قاطعًا إياه، ويمسكها بلا رأس فرحًا بوجبة لذيذة لوالده المنهك فضلًا عن جلدها الثمين، وضعها على عنقه وأكمل تقطيع الأغصان، ثم عاد إلى (جوبا) مبشرًا له بهذه الوجبة اللذيذة، ثم قال له (جوبا) أرني إياها وإذا بها ممتلئةً باللحم فبدأ بسلخها، وأسدل الليل ستائره عليهما فقاما بربط النمر والأرنب بالأغصان اللينة بعد أن أكلا الأفعى، فأمسك كلاهما طرف غصنٍ يسنده على كاهله مارًا بكتفيه إلى يديه الموازية لصدره وقاما بجر الغنيمة.

ينظر (جوبا) إلى جروحه محدثًا نفسه إن كنتَ قد قبلتَ قرباني ورضيتَ عني، وما إن وصل إلى ساحة الكاهن الأعظم نظر إليها محدثًا ذاته لماذا اخترتَ هذا الكاهن خاصةً ؟! ثم تابع خطواته نحو كوخه بقدمين أثقلهما الإعياء، وبعد هذا الخاطر وإذ بغضب السماء ينصب عليهم ورعد وبرق يخطف الأبصار أصوات أجنحة الطيور المهرولة وهي لا تعلم إلى أين المفر؟ وكأن الأرض فُجرت أمامهما وفي هذه الظلمة وقد بَرَق البصر وخسف القمر، وأصوات الوحوش تزأر في كل مكان)من ضباع وأسود وحتى الحشرات) وكل ما يشغل (جوبا) في هذه اللحظة هو أن يصلي ويستغفر عن هذا الخاطر الذي يزلزل الكون ويخرج من الأرض أثقالها، ويصرخ (إيفي) أبي، هيّا لنحتمي بهذا الجزع، لقد أنذرتنا السماء في المرة الأولى ولكن لم نفهم ولربما هدّأ هذا من روع (جوبا) بعض الشيء.

كَفَرْتُ بما تعبدون

خبأت (لي) (لانا) خلف ظهرها وتحركت ببطء كمَن يُساق إلى الموت، تمشي على أربع بعظامٍ نخرها الذعر وقلب يفيض بالرعب كاللبن المغلي، حركت باب الكوخ ببطءٍ شديدٍ تنظر من طرف خفي وتصرخ فزعةً: (جوبا) مَن فعل بك هذا؟!!! وتضرب وجهها، يدخل (إيفي) (ولي) بعد ليلٍ طويلٍ من أسى، وذعرٍ، وإجهاد إلى هذا الكوخ الصغير، تتحرك (لانا) تمسك الإناء الصغير المصنوع من الفخار، وتملأ الماء من الإبريق وتذهب إلى (جوبا) ساقية إياه، وكعادتها يسبق عقلها حداثة سنها، يتبسم (جوبا) ثم يلقي ظهره على الأرض ويمد زراعه الأيمن لتنام (لانا) كما تعودت.

(إيفي) قُم بجر النمر إلى القِدر وقطعه صباحًا (هكذا قال جوبا)، اختلط الأمن مع الخوف في قلب (لي) بعد عودة (جوبا) بل واختلطت السعادة مع الحزن، وفي سريرة نفسها افتخرت؛ فلم يحضر أحدٌ مثل هذه الفريسة التي تؤهله إلى زعامة القبيلة عامًا بأكمله، ضمدت بالخرق جراحه، وقامت بعقدها لعله يصبح معافيًا، وجاءت بالإناء المليء بالحساء الدافئ وأطعمته بعدما جلس متكئًا على جزع صغير داخل كوخه بجوار (لانا).

ثم قال له (إيفي) يا أبي هل سيأكل الكاهن أولا أم نحن والقبيلة؟ فأجاب عليه (جوبا) إني كفرتُ به وبالإله الأعظم أيضًا؛ لم يُجِب الصلوات، وأذاقونا العذاب ونحن نقدم لهم القرابين كل يومٍ، فلن نطعمه فريستنا وليعذبونا كما يشاءون.

(لي) صكت وجهها وقالت:

ما هذا بحق السماء؟!! (جوبا) أسكتها بنظرةٍ كادت توقف لسانها وتخطف سواد عينيها وضم (لانا) إلى صدره مستعدًا للنوم، ولسان حاله يقول جفت الأقلام عندي، طُويت الصحف فلا حديث ولا زفير يعلو.

سَمع حَسِيسُها

استيقظ (جوبا) و(لي) على قرع الطبول والتفت حوله فلم يجد (إيفي)، علم أنه مَن يقرعها بهذه القوة التي تميز قبيلة (الهوبا) عن غيرها، تمشطت لي بالعظام ووضعت الدُّهن على شعرها متزينةً لمثل هذا اليوم؛ إنها زوجة الزعيم القادم.

عاد (إيفي) بوجهه البشوش دائمًا، تتلألأ أسنانه البيضاء بين ظُلمه وجهه العاتم، متناسق الجسد في نحف، عمودي الوجه، أطمس الأنف، وضيق العينين كوالده، مستدير الرأس بشعرٍ هائج يستعد لتقطيع النمر وقد امتلأت عروقه فخرًا، وإذ بأبناء القبيلة ينسلون من كل حَدْب وصوْب، جاءوا على بُشرى الطبول بأن اليوم وليمة ولربما عُطلة من الصيد فقد كفاهم (جوبا) طعامهم، تجمعت النساء حول السيدة المنتظرة يقطعون معها النمر، وأخريات يجمعن مزيدًا من الأغصان اليابسة، اجتمع الرجال يقطعون الأغصان والأوراق العريضة ليصلحوا ما أفسده إعصار الليلة الماضية، كانت (لانا) تحمل الأغصان الصغيرة وتجر الكبيرة حتى أبوها ويأخذها (جوبا) متبسمًا واضعًا الغصون على سقف الكوخ، قطع هذا المُناخ المتعاون رجاله ونساؤه صرخة (كوك) شقيقة (جوبا) فقد خطفها أحد أبناء قبيلة (الجافا) بغرض المتعة وهذا أمر في أعرافهم ما لم يمسكوه متلبسًا، طوّق الرجال والشباب قبيلتهم وبسرعة

البرق تحركوا، هاجت النساء في ذعرٍ فلربما هناك عدد آخر من رجال (الجافا) ومصيرهن اغتصاب ويتلوه قتلٌ.

كوك، لا تخافي، كوك، كوك. كان هُتاف (جوبا).

وسمع حسيسها (إيفي) حوله بصوت مكتوم يخرج من وسط الحشائش، فسكن مكانه منتظرًا صوت أو حركة جديدة تدل على مكانها، وبعد وقت ليس بالطويل من البحث بدا له شاب الجافا خلفه، يمسك عمته كاسرًا ذراعها لويًا كاتمًا فاهها بيده الأخرى، ليذبحها في صمتٍ بعد أن فشل في اغتصابها، فأمسك (إيفي) قوسه وشد سهمه بكل قوة وأرسله إلى عنق الشاب الجافيّ، ترنح ساقطًا تاركًا عمته التي استقبلته فاتحةً ذراعيها معانقة مستأمنة به.

أبي، عمي، عمتي بخير.(هكذا صرخ إيفي).

ثم حمله شباب قبيلته إلى الساحة ويحملون خلفه القتيل أو بمصطلحهم الفريسة؛ فمن أعرافهم أن المغتصب يُقتل وترفع رأسه على باب القبيلة بعد أكله، وأكلوه دون طهي!!! أقاموا حفل المساء بقرع الطبول والرقص في دائرة مركزها النيران المشتعلة في غناء توارثوه مع طقوسهم .

﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ﴾[١]

استيقظت (لانا) على صوت أقدامٍ كثيرةٍ تطوف حول الكوخ، ثم سمعت صوت كضرب الطبول أفزعت الجميع، وقف (جوبا) وأسرته مسرعين بعدما ابتلت أقدام (لانا) بل وقف كل أفراد القبيلة، سمعوا صوت ضوضاء بالغة لم يفهموا الحديث ولكن فهموا لهجة التهديد الوضحة التي امتزجت بصوت السياط.

تردد (جوبا) في الخروج واستجمع قوته واتجه نحو باب الكوخ، وإذ بالباب يتحطم أمامهم وأحدهم يمسك ذراع (جوبا) ثم جره إلى الأرض بوجهه الذى جُرّ في التراب، ثم ينطلق (إيفي) بكامل شجاعته قافزًا بقدميه إلى صدر هذا الكائن الغريب، ولكن بضربة أحدهم بعصاه الغليظة أسقطته أرضًا أسير القلب مكسور القدم، تنظر (لانا) في ذعر من بين أقدام (لي) الماسكة بهم كالقضبان تحتمي خلفها، ثم ينظر إليها أحدهم ويتقدم داخل الكوخ ماسكًا بيده هذه الآلة التي تخرج الصوت العالي وتخرج نارًا منها (بندقية)، تعود (لي) ببطء للخلف فتحتضن (لانا) أقدام (لي) بتشبث وعيون أغرقها الدمع في صمت، يمسك أحدهم (لي) من شعرها المجعد ويجرها أرضًا وما زالت (لانا) متشبثة بظهرها حتى يلقيها فوق (إيفي) و(جوبا).

---

[١] القلم: ٤٣.

ينظرون إلى هذا العدد من الرجال التي تشبههم في الخلق ولكن يختلفون في اللون فلم يروا بشرًا لونهم أبيض من قبل، وكأنهم نزلوا من كوكب آخر بهذه الثياب المتماثلة والملامح المتشابهة، ينظرون إلى ساحة القبيلة التي تمتلئ بأبنائها بدون إرادتهم، وإلى الأكواخ التي يخرجون منها صراعًا كأنهم إلى الموت يسحبون خاشعة أبصارهم تُرهِقُهم ذِلّة، ثم يحشرون في صمت ذليل لا مجال لشهيق ولا زفير ولا صوت يعلو فوق صوت السوْط، ينظر (جوبا) إليهم في ذهول ولا يدري مَن هؤلاء ولماذا أتوا وما مصيرنا.

خَرَجَ في زِينته

في ساحة الكاهن الأعظم تطوقها الطبول وتتوسطها النيران، الجميع راكع أمام كوخ الكاهن - أكبر كوخ في الأدغال- من كل حَدْبٍ وصَوْب يتجمع أبناء القبائل راكعين في خشوعٍ مستأمنين به مستجيرين بعفوه؛ فجميعهم يخشى أن تصيبهم قارعةً مثلما أصابت قوم الهوبا، ذهبوا إلى مجهولٍ؛ إما قتل، أو شتات إلى الأبد، يعلو صوت الطبول في الساحة وترتفع الرقاع حاملة شعارات القبائل المنقوشة عليها النيران مستعرة، يطوف حولها خدام المعبد في حركة دائرية منتظمة حاملين الرماح، صارخين في تناسق، تتدلى من أعناقهم أنياب الفرائس منتظمةً في عقود، يحركون رؤوسهم بقوةٍ، تهتز جدائل شعرهم، فجأة يسود الصمت كأن على رؤوسهم الطير يتجمد الخدام كتماثيل الشمع ثم يخرج الكاهن في زينته؛ ذو جسمٍ عريضٍ، وبدن قوي، وبطن عظيم، وطول وفير، يغطيه الذهب من كل مكان، تعلو رأسه جواهر تتلألأ على غطاء رأسه، تتوسطهم ماسة كبيرة الحجم تزيد من هيبته، ذو نظر حاد بأعينه الضيقة ووجهه المتدلي وذقن مترهلٍ، صوته جاف جهور فإذا تكلم أسمع وأرعب، يداه كجزع مطلي بالصخور فإذا ضرب حطم.

نظر إلى الجميع وهم راكعون أمامه لا يرفع من التراب رأسه أحد في صمت طال وقته "' ما حدث للهوبا هو نتيجة العصيان وعدم تقديم القرابين؛ ولذلك رفع عنهم الرب حمايته وعنكم أيضًا، ولكن عندما جئتم

مستغفرين الآن أعطاكم الرب مُهلة فينظر ماذا ستفعلون، فمَن أراد منكم النجاة فليقدم أفضل القرابين ومازلتم في فُسحة من أمركم وإما فمصيركم معلوم "

كان هذا خطاب الكاهن وانصرفوا إلى أكواخهم بعد أن قبّلوا أقدام خدام المعبد.

﴿ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ ﴾[١]

تحدّث السوْط فأسمعهم، وأوقفهم، وأرعبهم، في هرجٍ يتحركون لبعض الثواني، يطأ بعضهم بعضًا بالأقدام، يهرولون في أماكنهم ثم يصطفون قطيعًا من البشر، ثم في الأصفاد وبالسلاسل يسحبون إلى مجهول غير معلوم، ينظرون إلى الأطلال مودعين باكين، يساقون إلى الموت أم إلى جحيم أبدي لا يدرون، بأقدام ثكلى أثقلتها جبال الوهم يتحركون في صفوف مستقيمة بالهراوات والكرابيج، يتلعثمون ويصطفون يتهادون في ترنح، تتطاير شعورهم وملابسهم من شدة الرياح المقابلة لهم، كانت تثقل من أقدامهم في الخطوات كأنما الأرض تأبى أن تودعهم، يسمعون حفيف الأشجار وكأنما ترسل إليهم نسائم الوداع.

تحمل (لي) (لانا) بإحدى يديها ومقيدة اليد الأخرى تتفقد القطيع تريد أن ترى (جوبا) و(إيفي)؛ فالجميع تحرك وفرّ المرء منهم من أخيه وأمه وأبيه، فكان لكل منهم شأن يغنيه، تنظر إلى جميع الوجوه التي تشابهت فجميعها وجوه باسرة تظن أن يُفعل بها فاقرة، إلى مد البصر أمامها رجال وخلفها كذلك لا تدري إن كانت تحْلُم هي أم في الحقيقة؟!!! تنكمش (لانا) واضعةً وجهها في عنق أمها كالنعامة قابضة بذراعيها، وفي مقدمة القطيع يسير (جوبا) مقيدًا يده بيد (إيفي) الذي يتكئ على ذراع

---

[١] البقرة: ٧٤.

الده ويمشي في وهنٍ، ويصرخ صامتًا من ألم قدمه وينظرإلى والده يستغيث في سكونٍ، يحيط بالجميع أشجارعالية تكشف أمامهم الطريق إلى أدناه فقط، ويحيط بالقطيع أغراب اللون بالبنادق والكرابيج، لا يتركون مجالًا إلى أن يخرج عن الطريق الذي رسموه للعبيد الجُدد والذين لم يردعهم السوْط قتلهم الرصاص، يشاركهم في هذا الأمر بعض الرجال السوداء وجوههم كباطنهم وهم قراصنة تجار العبيد كما يطلقون على أنفسهم وكانوا في تعذيبهم للقبيلة أثناء السير أشد عليهم من البيض، يتحركون جميعًا في صمت ساد سماءهم، كان نصيبهم من الضرب يوزع عليهم في تساوٍ؛ فالشيخ العجوز يساوي الرضيع ويساوي الشاب المراهق، وقد جفت قلوب الخاطفين فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فهذا الشيخ المتعبة قدماه من الهرولة يجرونه من شعيرات ذقنه لبطء حركته، وهذا الرضيع الذي ضل الطريق عن والديه يتهادى بين ركلات أرجلهم ضاحكين في سخرية، وها هي امرأة تعثرت فأوقفوها من شعرها ضاربين وجهها حتى سال الدم من خديها، لقد تهشمت عزتهم وذابت نفوسهم بما تبقى من كبرياء بل ونُزعت منهم صفة الإنسانية فَهُمْ كالأنعام بل هم أضل سبيلًا.

﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾[١]

دخل الكاهن الأعظم إلى كوخه الكبير يجد صديقه (سيزي) ذا الوجه الدائري الأسود،أصلع الرأس، غليظ الشفاه، متسع العينين، كبير الأنف، طويل القامة، متعضل الجسم، يجلس في انتظاره ابتسم له وبادله (سيزي) نفس الابتسامة المرسومة فهي لا تتجاوز الشفاه، ثم أغلق الكاهن باب الكوخ فأصبح المكان أكثر سكونًا، وساد الصمت أكثر مما كان، وجلس على المقعد المصنوع من الخشب الموازي لمقعد سيزي، وبصوت خافت يتناسب مع هدوء المكان قال له: مرحبًا بزعيم التجار.

فرد عليه سيزي مرحبًا بالكاهن الداهية.

ثم تابع كلامه قائلًا في سخف: لستُ تاجرعبيد ولكني عقاب الرب الذي توعدهم به فضحك في تمايل بصوت منخفض.

قال الكاهن: لي نصف المال ذهبًا بعد أن تبيع الهوبا، رد سيزي لم نتفق على هذا فمن حقي خطفهم دون إذنك أنسيت؟! أتظن أن ما تعطيني إياه من بعض الهدايا، والقرابين، وصيد المغفلين تطعمني أنا ورجالي.

قال الكاهن: أستطيع أن أجعلكم صيدهم ووجهة جهادهم ولكن إنها سياسة يا (سيزي)، وأنا أعطيك الإذن حتى لا تكبر الثغرة ويصبح التمرد شريعةً جديدةً.

---

[١] الكهف: ٣٤.

ضحك (سيزي) وقال: لا تملك سلاحًا مثلما أملك، وقبائلك مشغولة بصيد الأرانب فلا تقارن ولا تهدد.

حرك الكاهن غطاء رأسه المرصع بالجواهر وقال بكبرياء المغرور: يا (سيزي) لا ترفع رأسك كثيرًا فتسقط تحت قدميك، أستطيع أن أصنع جيشًا يتجاوز عشرة آلاف مقاتل.

فأجاب (سيزي) مقهقهًا ساخرًا:

من أين لك المال والسلاح الكافي؟!!

أجاب الكاهن:

أن الذي لا تعرفه أنني شريك (نياهو) في مناجم الماس والذهب، وما تأخذه أنت نظير نقل العبيد والماس هو أجرٌ اتفقت عليه أنا وشريكي.

ونزع الكاهن لباس التدين المطرز بالذهب ومد قدميه إحداهما فوق الأخرى، وفي ضجرٍ هزّ هدوء المكان صرخ (سيزي): إذًا أنتم تلعبون بي، أنا لستُ دُمية، أريد حقي الآن ومالي، وإما أن تدفعوا لي أجر هؤلاء الجنود، وإما أن أطلق سراح هذه العبيد وأخبر القبائل جميعها بما تفعلونه فيهم.

وبكل هدوءٍ قام الكاهن من مقامه متجهًا نحو (سيزي) ثم مد يده خانقًا (سيزي) قائلًا بهمسٍ بعد أن تغير وجه (سيزي) وجحظت عيناه، وتقطعت أنفاسه: كانت هذه الكلمات التي خرجت منك آخر ما قاله غيرك في الحياة، ولكني لن أقتلك سأعطيك فرصة حتى تأتي بنصف المال ذهبًا، وإياك يا (سيزي) أن تخرج عن قضيب قد رسمناه لك، أفهمت؟!

فهز (سيزي) رأسه موافقًا وساد الهدوء مرة أخرى.

أَصَابَتْهُم قَارِعَةٌ

وقفوا جميعًا أمام سفينة ضخمة، زادت خوف القطيع فزعًا بعد أن أدميت أقدامهم العارية في رحلة العناء الأولى التي انتهت بالبحر وهو البداية الثانية، فحلوا لهم الوثاق في هرج اختلط بالخوف يتساءلون ما هذا الشيء الغريب؟!! جبل من الأخشاب يطفو فوق سطح الماء إن هذا لشيء عُجاب؟!

وفجأة ساد الصمت كأن على رؤوسهم الطير، بعد عيار ناري أطلقه أحد الجنود، وبدأوا بفرز القطيع؛ فيجرون النساء من شعورهم إلى جانب الأطفال، وفي الجانب الآخر يحشرون الرجال مع الشيوخ والشباب، لا يجدون رفقًا في شيء إلا هذه النسائم التي يرسلها البحر تعاطفًا معهم، أمروا الرجال بالصعود أعلى السفينة بعد أن أنزلوا زقاق خشبي ليس بالعريض، فتراجعوا بخطواتٍ لا إردية فصبّ عليهم الجنود سوْط عذاب، فانطلقوا يتلعثمون فوق بعضهم متكدسين أمام الزقاق، يصعد أحدهم فوق الآخر وكأنهم على الصراط المستقيم ولكن تحتهم الماء.

صعد (جوبا) مسرعًا رغم خوفه الشديد واتبعه (إيفي) بعد عناء كاد يسقطه عدة مرات بسبب قدمه التي كُسرت، ينظر إليهم الشيوخ والنساء من الأسفل في ذعر يتمنون أن تمتلئ بهم السفينة فيعدون هم لأرض القبيلة مرة أخرى، يتمنون أن يذهبوا إلى الساحة يتلون الصلوات الطيبات إلى الرب، ويستنجدون بالكاهن الأعظم يريدون ترك هذا المكان

ولو إلى الموت، كلما وصل رجلٌ نظر حوله فاذا بطوْق من حديد يحوط هذا السطح الأملس مفرغًا من داخله وجنود على جميع جوانبه، ضرب الجنود بكل قوتهم حتى يجلسوهم في انتظام صفوفًا خلف بعضهم البعض.

جاور (إيفي) والده وقد كُسر كل منهم أمام الآخر في أسى وحزن لم يُخيم عليهم فقط بل على الجميع، يضع (جوبا) يداه على رأسه الذي كاد ينفجر صامتًا فهو أشد ألمًا من البكاء، يفكر فى (لي) (لانا) ولسان حاله يقول: هل ترانا نلتقي أم أنه كان اللقيا على أرض السراب؟!!!!

وتبادله نفس الشعور (لي) التي تجلس القرفصاء وبين فخذيها (لانا) وتحيط غمامة الحزن ميدانها ولم يزد حزنها بحار الحزن حولها إلا قطرة، ولسان حالها يقول نخشى أن تصيبنا قارعةً.

يسمعون آهات رجالهم فيزدادوا خوفًا ورعبًا إلى أن جاء دورهم، فتح الجنود باطن السفينة لهم وأمروهم بالدخول فهرولوا لم تكترث (لي) وهي تحمل طفلتها مهرولةً وتسابق أقدامها بعضها البعض ركضًا حتى أن أقدامها جُرحت ولم تشعر، كان مَن يسقط منهم شيخًا أو امرأة لا يستطيع النهوض مرة أخرى بل تحت أقدامهم يصارع الموت، وفي أنفاس متتالية عالية وكلمات متقطعة (لانا) لا تخافي سننجوا صغيرتي.

يتساقط العرق من جبينها ثم يتطاير شعرها الكثيف الذى يغطي رأس (لانا) على كتفها وأقدامها تسابق بعضها ركضًا، إن كان تحت أقدامها شيخ، أو طفل، أو أنثى فتطئه دون توقف ولكن لم تكن (لي) وحدها بل كان لكل منهم ميدان يهرول بداخله إلى نهاية غير معلومة،

وصلت (لي) إلى دهليز يوصلها إلى باب السفينةعندها توقفت متجنبة الزحام مرتعشة الأقدام وإذ بسوْط يشق ظهرها جلدًا؛ فتصرخ لتسمع ما بين المشرقين استغاثتها ولكن لا مجيب لها، كادت أن تسقط لينتهي أمرها دهسًا ولكن تماسكت وتشبثت ب(لانا) أكثر، وأدخلت (لانا) هي الأخرى رأسها إلى عنق أمها أكثر زارعةً أظافرها في جسد (لي) تشبثًا، تتلفت (لي) يمينًا ويسارًا في حركات لا إرادية؛ فالمكان مظلم؛ والهواء متوقف؛ والأصوات لها تردد مرعب، وكتل من اللحم البشري المتراكم تجرى فوقة وهي لا تعلم إلى أين ستصل هي وابنتها وكأنها في أعماق كهفٍ مظلم مليء بالجثث الحية.

بدأ الهواء يجف في المكان، وتتقطع أنفاسها، وتلهث بقوة، مخرجة لسانها قابضة على ابنتها، وإذ بها تتعثر في قدم عجوز فتسقط على وجهها وتمسك ابنتها باكيةً في همسٍ مختلطٍ بخوفٍ، اعتدلت جالسةً تحمل ابنتها حاضنةً إياها وتتلعثم أنفاسها في خوف، تعود زاحفة جالسةً للخلف وسط أصوات عويل وأنين وصراخ وكرابيج وضيق في تنفسها، فلا تكاد تخرج زفيرًا ولا تدخل شهيقًا وكأن الحياة تجمدت حولها رغم الأصوات العالية المترددة، إلى أن اصطدم ظهرها بجدار السفينة الغليظ فضمت قدمها مقرفصةً حاضنةً ابنتها وفي صمت وضعت رأسها فوق ركبتيها وأغمضت عينيها رغم الظلام، تحاول فاشلةً غلق أذنيها ولكن بدون جدوى يتسرب الصوت إلى جوفها المرتعش.

﴿ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾[١]

استيقظ (سيزي) في فجر هذا اليوم وحاول أن يخرج من الكوخ ويترك الكاهن يغوص في نومه، فقام وسط الظلام الحالك وأخذ ثيابه التي تشبه ثياب الجنود ومشى على أطراف أصابعه يحاول الخروج دون شعورالكاهن، يتفادى أوانٍ فخارية موضوعة على الأرض يتحسسها بقدميه إلى أن وصل إلى باب الكوخ بعد رحلة عناء شديدة، مد يده ليرفع غطاء الباب المصنوع من الجلد المتين وهَمّ بإخراج إحدى قدميه من المكان المشؤوم، وإذا بصوتٍ عنيفٍ غليظٍ (سيزي)!!!! عُد إلى مكانك ولا تخرج دون إذني؛ فتجمد واقفًا كتمثال شمعٍ في متحف منذُ زمن، ثم أعاد الكاهن قوله مرة أخرى بصرخةٍ مدويةٍ قلتُ عُد.

فتحرك مسرعًا إلى مكانه مستلقيًا على ظهره وسط الظلام فاتحًا عينيه رغم انعدام الرؤية، نبضات قلبه تحرك سطح صدره في شدة ارتفاعًا وهبوطًا، تخرج أنفاسه بصعوبة ظل في هذا الصمت اللعين حتى اعتدل جالسًا على طرق الطبول، عندما قام الكاهن في زينته وقال ل(سيزي) لقد وصلت القرابين، ألا تريد أن نأكل لحمًا طازجًا ونأخذ من ذهبهم.

---

[١] طه: ٨٧.

نظر إليه (سيزي) مبتسمًا كعادته بابتسامته الصفراء ولسان حاله يقول (أريد لحمك أنت) قطع أفكارهم استئذان الخُدّام بالدخول فلم يأذن لهم، ودخل (سيزي) إلى باطن الكوخ الضخم مختفيًا، ثم نظر الكاهن تجاهه متأكدًا من اختفائه عن أعين الخُدّام، ثم رسم على وجهه طابع الألوهيه من جدية، وغلظة نظرات، وطرق يديه يأذن لهم بالدخول، فرفعوا باب الكوخ داخلين خاشعةً أبصارهم محنيةً ظهورهم وضعوا ما جاء به أفراد القبائل إليهم، ثم اصطفوا متتاليين يُقبّلون أقدام الكاهن منصرفين في انحناءٍ شديد تكاد رؤوسهم تلامس الأرض إلى أن أغلقوا باب الكوخ وانصرفوا جميعًا، قام الكاهن مسرعًا خالعًا ثياب الألوهية وفي نَهَمٍ نظر إلى القرابين فاتحًا فاه فرحًا في شجن يحتضنها بيديه، ثم وقف وذهب إلى (سيزي) وأتى به إلى القرابين، ثم قال له: تريد أن تذهب قبل أن ترى هذا!! هيا لنأكل، اقترب يا (سيزي) اللحم طازج. فرد عليه: أعطني نصيبي من الذهب حتى أوصل الجنود وتقلع السفينة. حسنًا، (سيزي) كما تريد، ثم قهقه بدون أسباب واقتسم معه الذهب ثم أخرج له من جُعْبته ماسة وأعطاها له، فابتسم (سيزي) وجمع الذهب وطلب من الكاهن أن يفتح له الباب الخلفي للكوخ منطلقًا إلى السفينة.

﴿ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾[١]

قلّت الضوضاء تدريجيًا في باطن السفينة وعمّ السكون الدافئ بدون أمانٍ مصحوبًا برائحة كريهة تنبعث من أجسادهم العارقة وجروحهم الدامية، وفي وسط هذا الصمت تضع (لي) (لانا) في أحضانها ومازالت تجلس القرفصاء بأيدٍ مرتعشة تضمها، بدأت تفتح عينيها في ضوء خافت بدأ في الظهور لهم عند سكون المكان لترى هذا المكان المتسع في ظلامه وظلماته، يقبع أمامها عدد من أبناء قبيلتها فوق بعضهم البعض، في تلاحم يجلسون، لا مكان لقدمٍ بل لا مكان لقيد أنملة، لا تعرف ملامحهم رغم نشأتهم معًا، ولا يظهر في هذا الظلام إلا أسنانهم وبياض أعينهم.

يأخذ المكان الشكل البيضاوي أمامها ضيق من القطر ثم يتسع على يسارها، ثم في ضيق منتهٍ بانتظام يقل القطر، في أعلى هذا الجدار ثغرات ضيقة تدخِل شعاع ضوء خافت ينتهي قبل وصوله إليهم، على يسارها يقع باب السفينة الخشبي الغليظ صُنع من ألواحٍ ودسرٍ كباقي السفينة، على جانبه أربعة جنود حاملين البنادق، وفي صمت يقفون ناظرين بأعينهم يتربصون، تسمع أنينًا صامتًا وأنفاسًا تستغيث تكره أن تخرج من صدورأصحابها إلى هذا الجحيم، تكمم النساء أطفالهن عند البكاء

---

[١] القمر: ١٣.

ويتقدم فوقهم أحد الجنود ليتفقدهم شعروا بأقدامه التي تدك أجسادهم دكًا عندها خشعت الأصوات فلا تسمع إلا همسًا.

تطرق (لانا) وجه (لي) برفق وتقترب من أذنيها تهمس بتباكٍ صحبه الذعر "إني جائعة" ولا تكف أمعاؤها عن العويل، تخرج (لي) ثديها الظامر وتضعه في ثغر صغيرتها ربما يستجيب لرجائها ويخرج بعض القطرات، وبعد حين استجاب لها ولكن اختلط اللبن الحزين بدموعها التي انهمرت شلالًا على ثديها، وفي نَهَمٍ تمتص (لانا) ثدي أمها بلبنه ودمه الأبيض المتدفق من عينيها، فذاقت مرارة الحزن في أول الطريق ولربما كان مصل مضاد لها.

﴿ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾[١]

وصل (سيزي) إلى جناحه الخاص أعلى السفينة ومعه الذهب، وأرسل إلى قائد الجنود ونائبه في تجارة العبيد، وأخذ يعطيهم أموالًا وجواهر لهم، ثم أعطاهم بعد ذلك للأفراد والجنود وقال لهم إن هذه المرحلة لهم هي أهم المراحل على الإطلاق،

لابد أن تنتزعوا منهم الإرادة يجب أن يتعلموا كيف يكونون اللا شيء، ضيّقوا عليهم حتى إذا كانوا عبيدًا ظنوها حرية، شوهوا أجسادهم حتى يوقنوا أنهم منقوصون دون وجوههم حتى نستطيع بيعهم بأعلى الأسعار، فرّقوا الأطفال والنساء عن ذويهم المقربين؛ حتى يصبح أملهم الوحيد أن يجتمعوا،مَن يطع الأوامر اضربوه بأيديكم فقط، ومَن يعصِ فاجلدوه حتى يعود لصوابه، وإذا تعنت فاقتلوه أمام أعينهم بأبشع طرق القتل حتى يعتبروا، خذوا ضعاف النفوس واجعلوهم خدمكم المقربين، أهينوهم برفقٍ حتى يتمنى قوي النفس فيهم الضعف والوهن والذل برفقٍ، احشروهم حتى لا يناموا إلا وهم جلوسٌ، وإن كان في السفينة متسعٌ إذا نظر أحدهم إليكم بعينيه فاخطفوا بصره حتى لا تُرفع رؤوسهم أبدًا وتستلذ الانحناء، طعامهم لُقيمات لعلها تقيمن صلبهم، قدموها لهم بكبرياء وبعد إذلالهم، إذا تمردت امرأة فارفعوها من شعرها ثم اجلدوها،

---

[١] محمد: ٤.

وإذا لم تستجب فاغتصبوها أمامهم بسادية حتى تحكموا الأسر، إياكم أن يدافع أحدهم عن الآخر أو يطلب له طلب أو يتحدث بصفة الجمع ولكن كلًا عن نفسه يتحدث، إن تحدث بعد خضوعٍ وخوفٍ ورجاء إذا تعاطف معهم جندي فإما أن يجلس معهم أو فالقروش الجائعة أولى به.

وما إن انتهى من تعليماته إلا والسفينة تتحرك فاهتز كل مَن عليها ثم ثبتت لبضع ثوانٍ ثم عادت في تحركها بهزة أخف من الأولى، شعر كل أفراد الأولى بضيق في النفس وسرعة في نبضات القلب، فإنما تنزع منهم أرواحهم باكيين على الأطلال، مودعين الأدغال بما فيها من أشجار، وحيوانات، وطيور، تاركين هذه الرائحة وهذا النسيم الذي ولدوا يستنشقونه كل صباح، تاركين طعامًا اشتهوه وأكواخًا وأطلالًا، تاركين قلوبهم في هذا المكان بحزنها وفرحها بدمائها ودموعها بكل ما فيها حتى عبادتها فأين يجدون إله وكاهن جديد؟!!!

بدأ أصحاب النفوس الضعيفة في همسٍ يتهمون (جوبا) بأنه أغضب عليهم الرب، وأن ما هم فيه خطأ يقولون ياليتنا ذهبنا للكاهن وقدمنا القرابيين، فيرد عليه أحدهم أو عاقبنا (جوبا) على كُفره وقدمناه للكاهن الأعظم قربانًا وفدينا به أنفسنا، ويتبعهم ثالث بصلوات اللعنة على (جوبا) و(إيفي) وكلهم يسمع (جوبا) حديثه همسًا.

يستمع (جوبا) إلى حديثهم وهو أثقل عليه من الجبل، يقول يا ليتني مِتُ قبل هذا وكنتُ نسيًا منسيًا، وإذا بالصمت يحوم حولهم فجأة ويثبت الجنود كالدُّسر في الألواح ويجف التفكير في عقول العبيد، إذا هناك شخص مهم أتى ليتفقدهم فتخشع له الجوارح وتطاع له الأوامر، يحرك

مَن حوله بنظراته الحادة وسط الصمت التام لا يسمع إلا صوت أقدام مارة حولهم تزداد قلوبهم رهقًا، ثم وقف أمامهم قائلًا: لقد حكمت عليكم بالموت جميعًا ستأكلكم الأسماك واحدًا تلو الآخر، ثم أمر الجنود بحمل واحدٍ منهم، فأجابوه وأمرهم بإلقائه، ظل يتوسل ويرجو ولكن لا جدوى فلا ينظر إليه (سيزي).

كان تيار الهواء المعاكس للجنود هو أمله الوحيد فكان التيار قويًا في عُرض البحر كاد يسقطهم وهم يحملوه، وما هي إلا لحظاتٌ وسمعوا صرخته العالية ثم ينخفض صوتها تدريجيًا ثم صوت اصطدامه بالماء، عندما علموا مصيرهم وقُتلت نفوسهم، ونخر الرعب عظامهم فترتجف أطرافهم دون توقف يخشى أحدهم أن يطلب الرحمة برجاء فيلتقمه الحوت، ثم أكمل (سيزي) خطابه ومن الممكن أن أحييكم مرة أخري فتكونوا ملكًا لي، فقام مسرعًا أحد أفراد القبيلة نازعًا عن قلبه الجُبن تجاه (سيزي) يتقدم ببطشٍ شديدٍ، وما إن رفع يده ليبطش به فإذا بالكرابيج تغطي جسده جَلدًا فيسقط أمام (سيزي)، وإذ به يحاول القيام مجددًا فسبقت قدم (سيزي) وجهه وركلات الجنود قد شلّت أقدامه وكادت تخرج أمعاؤه، ثم أمرهم (سيزي) أن يوقفوه مشيرًا إليه بيده وبالفعل قام وجهه بوجه (سيزي) الذي أمسك عنقه بيده الغليظة وأخبره أنها بعض أنفاسه الأخيرة في الحياة، فاستجمع الشاب قوته وبكل شجاعة بصق في وجه (سيزي) فحطم الجنود عظامه بالهروات والسياط، في هذا الوقت نظر (سيزي) إلى العبيد فوجد العدد الأكثر فيهم مازال دافئًا رأس النعام بين قدميه فأطمأن قليلًا، ثم عاد مسرعًا إلى شجاع القبيلة

فأمرهم بصلبه على عمود يتوسط سطح السفينة ويعرونه من ملابسه تمامًا، وبدأو يجلدونه أمام أعينهم التي تراه من طرف خفي، و(سيزي) يخطو نحوهم كأنما يتربص بهم، ثم صمت طويل اختلط بابتسامته التي نبتت عن لذته بصوت نغمات الكرابيج، ثم بصوت جهور أجش ستتمنون الموت ثم لا تجدونه، ثم أمر جنوده بحطب تحت أقدام الشجاع وبالفعل أحرقها في تلذذ، صرخ الشجاع حتى فقد صوته ثم أُغشي عليه، ثم يفيق، ثم يغشى عليه، في عجز الأسير كأسد أصابه فخ صياد ماكر يجأر ويزأر في ثبات دون بكاء، وما إن أسدل الليل خياله وإذ ب(سيزي) وجنوده يبدأون في احتفالهم؛ فكانوا يصفقون، ويضحكون، ويسكرون ثم على أقدام الشجاع الطازجة يتغذون، وما زال الشجاع حيًا يبحث عن الموت فلا يجده.

﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾[١]

بدأ الهواء القليل يتحرك في باطن السفينة وهي تجري بهم في موج كالجبال، ولكن ما زال الظلام الدامس يخيم عليهم، وازدادت الرائحة سوءًا فكل يقضي حاجته في مكانه ،وبعضهم يتقيأ بعد تحرك السفينة فازداد السوء سوادًا، بدأت (لي) تسمع التضرعات حولها والصلوات تُتلى بهمسٍ ولكن في يأسها تصمت تفكر في مصير (لانا)، وهل ستلتقي ب (إيفي) و(جوبا) ثانيًا؟ أم تسمع اضطرابًا على سطح السفينة وصوت يعلو وسياط الجنود والجلادين يطوف في الأفق، كان الجنود يحشرونهم رغم اتساع سطح السفينة ويزجون بهم بركلات في وجوههم.

وكالعادة جَلْد ظهورهم الدامية حتى تجمعوا في جانب السطح الخلفي للسفينة، ضاقت نفوسهم بما رَحُبت يضعون رؤوسهم بين ركبتيهم جالسين القرفصاء في صفوف متتالية، عيونهم لا تجد مأوى سوى النظر إلى الأقدام، وإذا تحرك ساكنًا تبعته السياط له فالجلادون يحيطون بهم.

---

[١] الشورى: ٤٥.

﴿ ٱلْأَنفَالِ ﴾[١]

استيقظوا كما ناموا على فزعٍ؛ فالجنود ينضحوا وجوههم بالماء، وفي صمت فتحوا أعينهم منتظرين مصيرهم، كلهم نظروا إلى الشجاع أو ما تبقى منه فإذا هو فارق الحياة وفارقهم، اختار أن يعيش مرفوع الرأس، ويموت عاري الصدر لا يوجد في قاموسه الانحناء فهكذا علّمهم أعظم الدروس وزرع في قلوبهم فزعًا جديدًا، باء من خلفهم (سيزي) وما زال النوم يملأ عينه ويمشي بقدمين غير قادرتين على حمله،

أمر الجنود فأطاعوه وأطعموا الأسماك ما تبقى من طعامهم بالأمس، ثم وقف أمامهم وقال هذا مصير المتمردين منكم سأخبركم بشيء؛ أنتم ملكي لقد دفعتم الكثير حتى تؤخرون هذا المصير ولكن عندما امتنعتم عن الدفع باعكم الكاهن، أعلم أنكم لا تفهمون لكن انتظروا، ثم ضحك كالأشرار ونظر إلى أحد الجنود فذهب إلى غرفته الخاصة وأحضر صندوقًا ثقيلًا يجره بكلا يديه ثم وضعه أمام (سيزي)، ثم أشار إليه ففتحه وإذا به قرابين قد أعطوها للكاهن وبعضها من المَوْسم الماضي أيضًا، لم يصرخ منهم مثلما فرح (جوبا) كاد أن يحرق القانون ويبتسم في حضره (سيزي)، وفي هذه الصدمة أمرهم (سيزي) بالانصياع لأمره ولينظرعذاب مَن يعصيه، رأى كل منهم قرابينه في ذهولٍ توقفت قلوبهم وعقولهم عن

---

[١] الأنفال: ١.

التفكير، فَهُم في فتنةٍ كفتنة المسيح الدجال ولم يؤمن بالكفر أسرع من (جوبا) و(إيفي)، أليست هذه القرابين ما كنتم تفدون أنفسكم بها؟!! وقد قطعتموها فأنتم الآن عُدتم إلى ما كنتم عليه إلى أصل العبودية، أنتم عبيدي وخدمي يجب أن تتعلموا كيف تستمتعوا بسوطي!!! وكيف تعشقون السادية!!!! لا تستعجلون ستعلمون بل وتتقنون العبودية، ثم نظر إليهم بنظرة واحدة تتفقد أعينهم، ثم أشار إلى أضعفهم وأكثرهم ذعرًا وأمر به فأحضروه إليه، ثم أمرهم بأن ينظروا إليه وبعدها بثوانٍ وضع يده على خنجره وبصوت مرعب جهور أمر أن يقبل قدمه مشى خلفها العبد حبوًا يقبلونها، وبعد قليل من الوقت نزعها (سيزي) ووطأ بها رأسه أيضًا وقال هذا مكانكم أفهمتم ؟!

ثم أمرهم ألا يضربوا هذا العبد ولا يعذبوه، وكانت هذه أول الخطوات الناجحة في تربية (سيزي) لهم، ثم أمر بالطعام فإذا بعشرات الأرغفة من الخبز تلقى لمئات من الأفراد الرابطين على أمعائهم عدة أيام، وهذه التجربة قادرة على أن تفصل لك القوي من الضعيف في تدافع شرسٍ ينهشون بعضهم البعض ليصلوا للخبز، لكن حتى القوي منهم لم يجد سوى لقيمات يقمن صلبه، عندها طلب أحدهم التحدث رافعًا كلا يديه متلاصق الكفين في توسل خافضًا رأسه، تركه (سيز) في وضع الإذلال هذه عدة دقائق، ثم أمر به فوضعوه أمام (سيزي) راكعًا فقال له تحدث، وبشفتين مرتجفتين قال له الطعام لا يكفينا سيدي، فهل من مزيد؟

فنظر (سيزي) إلى الجنود فأقرعوا رأسه ضربًا ثم بعد أن تهالك في توسل ل(سيزي) أن يرحمه، أمرهم فأوقفوا الضرب ثم قال له لا يوجد

هنا مَن يتحدث باسم الجميع كل فرد يتحدث عن نفسه فقط، فطأطأ العبد رأسه في وهنٍ مصدقًا على الكلام، ثم أمره (سيزي) أن يعيد ما قال، فقال العبد سيدي، إني جائعٌ فهل لي طعام عندكم؟

فرد (سيزي) وما المقابل؟! فأجاب العبد: كل ما تريده سيدي، فأمر الجند أن يحضر له دلوًا من الماء وبعض الأعشاب اليابسة المستخدمة في تنظيف السفينة، ثم وضعوه داخل حجره (سيزي) لينظفها، وبعد قليل أخرجوه وقد انتهى من تنظيف غرفة (سيزي) وأوقفوه أمامه، ينظر إليه العبيد يغيظونه على هذه المكانة منتظرين رؤية طعامه، فأمر له (سيزي) بنصف رغيف له وحده فأحضروه له، ثم اشترط عليه أن يأكله وحده وإلا فالقروش أولى به، وكانت كلماته هذه حُكم بالإعدام على القيم والمبادئ داخلهم أولها التعاون والإيثار، ولو أدرك المساكين لعلموا أن الموت أفضل لهم من قتل المبادئ في نفوسهم، وما هي إلا أيام و ذُل الجميع ويتمنى الشريف فيهم أن يحظى بتنظيف نعل (سيزي).

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾[١]

فتح أحد الجنود باب السفينة وتراجع مسرعًا واضعًا يده على أنفه من هَوْل الرائحة الكريهة التي تعيش داخلها (لانا) و(لي) تسرب إليهم الهواء كرياح أتت من القطب الشمالي الجليدي، اقشعرت أبدانهم ثم بدأوا في التحرك من فوق بعضهم البعض ليستنشقوا بعض الهواء الحُر قبل أن يقيد معهم؛ فالجنود لا يستطيعون الدخول فمازالت الرائحة الكريهة موجودة، فألقوا إليهم بعض الخبز ليتناهشوه بأظافرهم وأسنانهم لا يبالون بأي شيء في سبيل هذه اللقيمات، تحركت (لي) وسط المعركة بشجاعة وبشاعة لا تريد سوى قطعة خبز لها أو ل(لانا)، وبالفعل نجحت وعادت بقطعة لا ترقى في حجمها لكف ابنتها بدأت في مضغها ثم تضعها في ثغر (لانا) لعلها تقاوم الموت الذي يحوم فوق رؤوسهم، وما إن سكن الجميع وإذا بالجنود يملأون الدلو من الماء المالح ويلقونه عليهم فيخرج الماء من تحتهم مرة أخرى أسود قاتم كريه الرائحة ملئ بالقاذورات؛ فجميعهم يتبول ويتبرز في مكانه، وما إن أُغلق عليهم الباب وبدأ كل منهم بحك جلده قد تصل إلى الجروح وفي أجسادهم خاصةً الأماكن الحساسة، وامتلأت أجساد كبار السن بالقُرَح، وبدأ العفن ينبت في

---

[١] الأعراف: ٥٠.

أجساد بعضهم وينتشر كالنار في الهشيم، وحشرات وديدان تملأ أجسادهم العارية يشعرون بها وربما يرون بعضها عندما يُفتح الباب.

وفي إحدى الأيام السوداء هذه داخل القبرالجماعي هذا يحتضر أحدهم ويضيق صدره ولا ينطق لسانه، يدخل الهواء شهيقًا قويًا ولا يخرج ويمسك هذا الكهل قلبه منتفخة عيناه، بعد دقائق من التردد نادى العبيد والنساء على الجنود فلم يجيبهم أحدٌ، وبدأوا بطرق الباب بقوة المستغيث الملهوف فأجابهم أحدهم بصوت متقطع بأن هناك مريضًا يصارع الموت ونريده أن يخرج للهواء فقط لا يستطيع التنفس هنا، عندما فتح الجنود الباب بعد وقت ليس بالقصير ووقفوا في غضب ثم أمروا الجميع بالوقوف في مكانه وقالوا "مَن طرق الباب يظل واقفًا" ليجلس الباقين عندها جلس الجميع، فأجابوهم بالجَلْد والضرب المُبَرّح حتى فارق الشيخ الكهل الحياة وسط الزحام، عندها جره الجنود من إحدى قدميه إلى الخارج وبقلوب هي كالحجارة بل أشد قسوةً ألقوه في المياه ربما يلتقمه الحوت أو تتغذى عليه الأسماك، ثم وقف قائد الجنود وقال لهم لا تطرقوا الباب أبدًا ولا ترفعوا صوتًا، وإذا مات أحدكم فنادواعلينا بصوتٍ صامتٍ ربما نفسح لكم ونلقيه في الماء.

تَفِيضُ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ

وبعد عدة أيامٍ أتقن فيها الرجال العبودية، والخضوع، وانتشرت الأسقام في النساء، وتُوفيّ بعض الشيوخ والأطفال وصلت السفينة إلى كوكبٍ جديدٍ لقد رست في مياه الولايات المتحدة الأمريكية، وليوم كامل ينتظرون هل إلى الموت يزفون أم إلى الجحيم يساقون؟

توقفت نسائم البحر فأصبح العرق يغرق وجوههم وأبدانهم، ينتظرون مصيرهم المرعب المجهول كشيخٍ يطاردهم فساكن هو وهم ساكنون، أحدهم يودع الباقين ويأمرهم بأن يودعوا بعضهم البعض؛ فقد أيقن بالموت المنتظر، وآخر يقول سنبقى هنا لنخدم (سيزي) ورجاله، وآخر يبشرهم بالعودة إلى الأدغال فهذا إرهاب لنا فقط، وآخرون في أمواج الخوف يرتعشون، وقطع هذا المُناخ مناديٌ ينادى عليهم ليقف الجميع ويستعدوا للخروج، عندها فُتح الباب وقالوا لهم ليخرج الجميع مسرعًا وآخر فرد يخرج سيلقى عذابه، فتدافع الجميع تدافعًا نحو هواء وسماء لم يقيدها (سيزي) بعد بين فرح وحزن.

انتظرت النساء أزواجهن في هذه الساحة الممتدة الكبيرة التي يحوطها جنود وأسلاك، نزل الجميع من السفينة يطوف كل منهم بحثًا عن أقرانه وأصدقائه يحاولون لم شمل لن يطول ولن يدوم، أسدلت شمس الغروب ستائرها ولم تجد (لي) (إيفي) و(جوبا) تنظر يمنة ويسرة تتسابق أقدامها وتلهث في نفسها تسمع (لانا) نبضات قلبها السريعة،

وعندما فقدت الأمل وحدثتها نفسها أن يكونا ممَن سمعتهم يلقون في الماء فإذا بطيفه يلوح حولها رأته على بعد أمتار، عندها أخذت شهيقًا بابتسامة عريضة أعجزتها عن النداء عليه فجَرَت نحوه تلوح بيدها وما إن رأته قادمًا ففتحت زراعيها لتستلقي (لي) في أحضانه، عندها لا كلام بل شعور يعجز عباقرة الأدب عن وصفه؛ تلامست الضلوع وتعانقت القلوب فاضت أعينهم من الدمع يتحسس (جوبا) جسدها فلم يجد جروحًا بل أثر السوْط فزادت عيونه فيضًا وضمها أكثر كاد يدخلها صدره، وبعد دقائق حمل (جوبا) ابنته الجميلة (لانا) وأعطاها مجموعة قُبلات متتالية ومتسارعة في حالة من هستريا الشوْق، واحتضنت (لي) (إيفي) وضمت رأسه إلى صدرها وبكى الجميع حتى ذات العيون الزرقاء.

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾[١]

أمسك (جوبا) برأس (لي) طوال الليل ناظرًا في عينيها يتنفس من زفيرها، يتذكر الماضي الجميل بينهما تحت ضوء القمر يهامسها بأعذب الكلمات، ربما اطمئن قلبها بينما (إيفي) يحمل (لانا) يداعبها ويلاعبها ويلهو بها ومعها حتى تنفس الصبح فوق رؤوسهم، وما إن أشرقت الشمس عليهم حتى جلبت معها هادم اللذات ومفرق الجماعات ولكنه ليس ملك الموت هذه المرة إنه (سيزي) الذي أمر الجنود أن يحضروا كل الصبية والشباب ويفصلونهم عن الباقين، وبالفعل بدأ الجميع في صراعٍ جديدٍ مع الجنود؛ فكل أبٍ وأمٍ وزوْجٍ وزوجةٍ يشعر بروحه تنزع أمامه والسوْط فوق رؤوسهم حتى جاء الدورعلى (إيفي)، فتشبث بوالده وأمسكت أمه ذراعه وتصرخ (لانا) جالسةً بين أقدامهم والسوْط يخرج نغماته على ظهر (جوبا) حتى يترك ولده، وبينما تصرخ (لي) وتتوسل إليهم وهم لا يستجيبون، إذا نزلت أقدامهم قابضةً مقبلةً في توسل أن يتركوه، فما كان منهم إلا أن أزاحوا وجهها بأحذيتهم الغليظة، وبعد معاناة استمرت لدقائق وسط صراخ الزوجات والأمهات نزعوهم جميعًا، وأخذوا جميع الصبية والشباب في صفين أوقفوهم مُقَرّنين في الأصفاد، وأتاهم العذاب من بين أيديهم ومن خلفهم حتى يسيروا في هرْوَلةٍ بعيدًا عن الساحة التي وُضِعت

---

[١] يوسف: ٢٠.

بها منصة كبيرة واستعدوا لبيع العبيد، بدأ الجنود وتجارالعبيد في تنظيف النساء وإعطائهم بعض الأقمشة ليرتدوها عند العرض، وبدأوا بطرق الأجراس استعدادًا للبدء، وبالفعل اصطف النبلاء وعِلية القوم والأسياد أمام المنصة وبثمن بخْسٍ اشتروا العائلات، حتى صعدت عائلة لانا ذات العيون الزرقاء التي اختلفت جيناتها عن قبيلتها بالكامل في طفرةٍ جينية لها السبق من نوعها بوجهها المستدير، وعينيها الزرقاوين وأنفها المدبب وشعرها الكثيف الطويل الخشن، لفتت أنظار النبلاء والسادة وجميعهم أراد أن يحظى بها، وكانت سببًا في شراء هذه العائلة بثمن باهظ، فقد كانت (لانا) تختلف في كل شيء وطفرة فعلية فى جينات العبيد، فضلًا عن روحها المقبولة لدى الجميع.

تَمنوا المَوْت

أخذوا الشباب إلى جنوب البلاد في رحلة عذاب جديدة وما هي إلا بداية الأسر الحقيقي بداية النهاية لكل إنسان، ذهبوا بهم وسط صخور وهضاب وأوجعوهم ضربًا حتى تمنى كل منهم الموت، كاد الجبابرة أن يقطعوا قدم (إيفي) عندما علموا بكسرها، ثم أخبروهم بأن الموت هو سبيلهم الوحيد للخلاص من العذاب، فتمنى الجميع الموت حتى (إيفي) وبالفعل انتظر كل منهم صباح اليوم التالي، جلس (إيفي) يفكر في (جوبا، ولي، ولانا)، ثم أخرج في هذه الليلة عواطفه الدفينة تجاههم وشوقًا دفنه في أعماقه منذ أمد، تمنى لو عاد إليهم مودعًا فقط مُقَبِّلًا (لانا) هذه الزهرة الجميلة، فكر كل منهم في أهله وقبيلته وهل مصيرهم هو نفسه المصير، وما إن شقت الشمس تلال الليل وخرج النهار وكأنه في أعينهم ظُلمة سرمديه الأمد، هل إلى الجحيم؟!! أم هناك بعد الموت حياة أخرى؟!! أم مصيرنا مصيرالدواب تراب بعد الدود؟!! ظهر أمامهم الجنود وكأنهم ملائكة الموت بنظرات حادة كادت توقف قلوبهم، وبعد أن انبطح الشباب جميعًا ووجوههم في التراب خاضعة ينتظرون الموت وما بعده من مجهول قتلهم الانتظار ألف مرة ومرة، ولكن ظهر أمامهم قائد الجند الجديد (مايكل) الذي أحياهم مرة أخرى، فقال لهم هل أنتم مستعدون للموت هل ستفارقون الآن الماء والهواء ثم ضحك، مَن أراد أن أعطيه فرصة للحياة فليقف، فحاولوا الوقوف بصعوبة فقد نخر الرعب

عظامهم فلا يستطيعون الوقوف، في ارتعاش اصطفوا كما أمر (مايكل) وبهدوءٍ تامٍ قال لهم: لا يوجد هنا شيء بالمجان فمن أراد الهواء فعليه العمل، من الآن وحتى غروب الشمس عليكم أن تحطموا أكبر قدرٍ من الصخور، ومن يتباطأ فلا طعام له ولا هواء فالموت خيرٌ له.

وبدأ الأفراد في العمل وكانوا قرابة خمسين شابًا وخلفهم خمسون جنديًا وكرباج، بدأ الجميع حياة جديدة وهمهم إياها (مايكل) الذي يجلس فوق عرش يقيه حرارة الشمس، وبعد عدة ساعات أمر لكل منهم بشربة واحدة من الماء، كانوا يضربون الصخور بقوةٍ رغم ضعف أجسامهم الهزيلة وضعف قوتهم وكأن كل منهم في مخاض جديد يصارع ليخرج من موته للحياة، وبعد أن أتموا تحطيم الصخور وناموا كان فراشهم التراب ولحافهم السماء، مروا عليهم الجنود ببعض لُقيمات لا تغني ولا تسمن من جوع، ناموا في ليلة من أسعد لياليهم رغم الإجهاد والوهن أحبوا (مايكل) الذي أعطاهم الحياة رغم أنه هو من سلبها، لو يعلمون حقيقة الأمر لقتلوا أنفسهم بأيديهم خيرًا من القتل البطيء على يد الجنود وقائدهم، ظل الحال كما هو في تحطيم الصخورعدة أسابيع إلى أن جاء دور المهام الصعبة وانتهت فترة الترويض والتدريب

مَا لا عَيْنٌ رأت

ذهبت (لانا) مع أمها وأبيها إلي المنزل الجديد في الشمال، كانوا يتفقدون البشر والجدران وحتى الأشجار كأنهم في كوكب آخر، ذهبوا إلى حياةٍ جديدةٍ لا يعلمون أهي خير أم شر؟! كل ما يوقنون به هو أن حياتهم الآن خير من السفينة وأن هذه الأسرة أفضل من (سيزي).

كان منزل متسع المساحة حوله حديقة جميلة ويطوقها سورٌحديديٌ وباب خشبيٌ كبير مليئة بالأشجار المتساوية المتناسقة، وبها غرفة صغيرة في حجم كوخهم أو أكبر شيء قليل، وحارس أبيض اللون وهو مَن يُقلِّم الأشجار، وما إن وصلوا حتى أدخلهم (لوثر) صاحب البيت إلى هذه الغرفة التي تجاور منزل الكلب، وحلّ وثاقهم وفي صمتٍ تركهم وذهب، وما إن وضعت (لانا) رأسها على صدر (لي) حتى نامت وبعدها لم تستطع حتى الهمس مع (جوبا) فقد غلبها النُّعاس والإنهاك.

وفي الصباح وقف السيد (لوثر) يحدثهم ويشرح لهم وهم في عالم آخر ينظرون في صمتٍ؛ فلا يعلمون لغته التي يحدثهم بها، ثم اشتد غضبه لعدم تجاوبهم معه وبدأ يصرخ فزاد ذلك من خوف (جوبا) على نفسه وأهله، ثم حاول أن يخبره أنه لا يفهم كلامه، فصرخ (لوثر) بقوةٍ مرةً أخرى ثم حاول (جوبا) استخدام الإشارات لكي يخبره أنه لا يفهمه، ثم صمت (لوثر) وعاد إلى هذه الغرفة ومعه الحارس ويحمل كل منهما كرباج، ثم أمسك (لي) من شعرها فحاول (جوبا) إبعاده فضربه (لوثر)

بقوة هو والحارس حتى تخدر جسده فلا يستطيع الوقوف، ثم أخذ (لي) وأمسكت بها (لانا) فزجرها (لوثر) بقدمه، ثم أدخل (لي) إلى المنزل فوجدت في انتظارها السيدة (تريزا) التي وقفت وسط غرفة الاستقبال الكبيرة تضع كلتا يديها في خصرها حتى ألقاها (لوثر) من شعرها تحت أقدام زوجته (تريزا)، وما إن نظرت إليهم (لي) وإلى المكان حتى تاهت أعينها تطوف في المكان تتفقد وتتفحص فتجد لوحات على الجدران رُسم عليها حيوانات برية، وتحف، وتماثيل تشبه الحقيقة بعض الشيء، وما لبثت لبضع ثوانٍ حتى أخذتها (تريزا) إلى الحمام لكي تنظفها وهي تتحدث بنفس لغة زوجها التي لا تفهمها (لي)، وجردتها من ملابسها ووضعت فوقها الماء لعله يهدئ من بشاعة هذه الرائحة الكريهة، ثم ببعض الخرق سترتها في صمت و(لي) ترقب ما قد تفعله بها، ثم أخذتها إلى المطبخ حتى تنظفه وتنظف أوانيه وأمرتها بهذا، فتجمدت (لي) مكانها فأخذت (تريزا) المنشفة وبدأت في تنظيف الأرض حتى تُعلمها، فلم تتحرك (لي) ثم أعطتها (تريزا) المنشفة وحركتها كما كانت تفعل، ومازالت (لي) لا تتحرك كأنها جماد لا روح فيه، فصرخت (تريزا) وأتت بخشبة طويلة وبدأت تضرب (لي) وهي تصرخ من الألم، حتى أفهمتها العصا وبدأت في تنظيف الأرض، وبعد أن انتهت أوقفتها (تريزا) إلى الأواني لكي تنظفها، فأمسكت (تريزا) إحدى الأواني ونظفته أمامها، ثم أعطتها إناء آخر لكي تنظفه وما إن أمسكته بتعجب ما هذا الشيء وسقط الإناء من يدها على الأرض فيحطم تمامًا وتصبح الأرض غير نظيفة مرة أخرى، عندها انهالت فوقها (تريزا) ضربًا بكفيها وتتوسل إليها (لانا) ولا تفهم (تريزا) كلماتها حتى أجهدها ضرب

(لانا)، فتوقفت ودموع (لانا) تغرق هاتين العينين وخديها وهي تنظف من جديد، تمالك (جوبا) نفسه واستجمع قوته وبدأ بطرق الباب بحثًا عن زوجته التي أُختطفت أمام عينه ففتح له الحارس ونظر إليه، فرجع إلى الخلف وهو ينظر إلى الحارس أمامه في رعبٍ حتى التصق ظهره بحائط الغرفة بدأ الحارس يهدىء من روعه ويطمئنه، لم يفهم كلامه (جوبا) ولكنه مد عينيه ولهجته الهادئة فهم ما يريد منه، فجلسا على الأرض وبدأ الحارس يضمد جراحه في ارتعاش وترقب، ينظر (جوبا) إليه وما زال الأمان بعيدًا عن قلبه، ثم سمعا أصوات (لوثر) وهو يصيح وينادي على الحارس عندها انهال الحارس فوق (جوبا) ضربًا وتعذيبًا فدخل (لوثر) إلى الحجرة ثم نادى على الحارس وذهبا إلى الحديقة وأمره بإطعام الكلاب وتنظيف بيتهم المجاور لغرفة (جوبا)، أوشك النهارعلى الرحيل و(جوبا) في انتظار (لي) وهو يحمل (لانا) بين فخذيه وإذا بالحارس يفتح الباب ويُدخل (لي) إلى الغرفة المظلمة، جلست إلى جوار (جوبا) وهي مرتعشة الجسد النحيل فضمها إلى صدره وأجلسها، وبدأت تحكي له عن هذا الخيال وهذه الأشياء التي رأتها وما فعلته معها (تريزا) منذ أن خرجت من هذه الغرفة، وبعد فترة قصيرة فُتح الباب وتملك منهم الرعب وفي هذا الظلام الدامس لا تريد أن تعيد رحلة العذاب مرة أخرى، وخاف (جوبا) من ذهابه هو هذه المرة، وبينما تزداد خواطرهم سوءًا وقلوبهم فزعًا وأجسادهم رعشة وإذا بالحارس يدخل إليهم الطعام وضوء من قنديل صغير الحجم.

﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾[١]

انتقل (إيفي) إلى مكان جديد هو وزملاؤه وفوقهم القائد (مايكل) وبأيديهم الأغلال، انتقلوا إلى منجم فحم وما إن وصلوا وإذا بالجنود يضعون كلا منهم فوق مهمته الجديدة ويعطون كلا منهم فأسه وخلفهم بالكرابيج.

دخل (إيفي) ومعه اثنين من رفاقه إلى داخل المنجم المظلم داخله إلا بضوء خافت وبدأ بالتكسير هو وزميله (جون) وزميلهم الثالث يعبئ الوعاء بالفحم ثم يخرج به خارج هذا النفق ليضعه في مكان تجمع الفحم.

بعد عدة ساعات بدأ (إيفي) في الاختناق من هذه الرائحة الكريهة وقلة الهواء داخل هذا الخندق، فتباطأ في التكسير وإذا بالجندي الثابت خلفهم ينهال عليه ضربًا بالسوْط، وسمع صوت (جون) زميله تحمّل (إيفي) وسالت الدمع من عيون جميع العمال في هذا المكان، وما إن حلّ الليل عليهم حتى خرج كلا منهم من خندقه وتجمعوا في مكانٍ متسعٍ حول المنجم، مر الجنود عليهم ببعض الطعام والماء، غشيهم النعاس من شدة الإجهاد واستيقظوا في صباح اليوم التالي على ضرب السياط وأحدهم على صراخ زميله من الضرب، فحمل كلا منهم فأسه وذهب إلى مكانه، وبدأ

---

[١] طه: ٦١.

التعب يطرق أجسادهم الهزيلة والضرب هو مَن يقاوم هذا الوهن، وبينما هُم في هذا الشقاء وإذا بهم يسمعون صوت طلقٍ ناري في إحدى الخنادق المجاورة لهم فخرج جميع العمال والجنود، ليرى الجميع أحد العبيد مسحوبًا من قدميه مجرورًا أعلى وجهه ثم ألقى به الجنود وسط الساحة، فنظر (مايكل) من عرشه الجديد وسأل ماذا فعل هذا ؟ فأجاب الجندي أمسك الكرباج وأنا أضرب أخاه الأسود، فقال (مايكل) القوه خارج هذا المكان وأكملوا العمل، فار الدم في صدور الجميع كاد الصخر يتفجر من شدة ضرباتهم المصحوبة بالغل، وما إن حلّ الليل عليهم حتى بدأ (إيفي) يتحدث مع (جون) فيما حدث وأن هذا هو مصير الجميع إذا لم يتحركوا، وبالفعل بدأ (إيفي) و(جون) يقنعون الجميع ويزرعون فيهم القوة من جديد، ومن ثم قررالجميع التوقف عن العمل في صباح ليوم التالي، استيقظ الجميع قبل الجنود ووقفوا في ساحة المنجم، عندها فرح (مايكل) عندما رآهم مستعدين للعمل، وجاء الجنود ليوزعوهم على أماكنهم وإذ بهم متجمدين كأصنام الجاهلية، بدأ السوط ينزل على وجوههم وظهورهم وهم في صمت لا يتحركون، حتى نزل إليهم (مايكل) مسرعًا وفهم سبب اعتراضهم، فأوقف الجنود وأمسك بالبندقية وأطلق الرصاص في الهواء فارتجف الجميع، قام بتوجيه السلاح تجاههم وقال من أرد اللحاق بزميله فليقف هنا، فانصرف الجميع كلٌ إلى نفقه الذي يعمل به، وأمر الجنود بمنع الماء عنهم عقابًا لهم عن هذا الاعتراض، فأتعبهم العمل بدون ماء ولا طعام فضلًا عن الجَلْد بسببٍ وبدون سببٍ.

﴿ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[١]

كان الحارس طوال هذه الفترة هو الوحيد الذى يعامل (لي) و(إيفي) برفقٍ وحتى (لانا) أحبته كثيرًا خاصةً في هذه السنوات الأخيرة، وباختلاطه الزائد بهم فهم كلامهم وعلّمهم الإنجليزية بسهولة، خدمت (لانا) في هذا البيت منذ نعومة أظافرها واعتادت على العبودية فكأنما خُلقت لتخدم (تريزا) و(لوثر).

نسيت الابتسامة في هذا البيت السيئ فكانت (تريزا) غليظة الطبائع، كأنما ترقد الأفاعي بين أضلعها، كثيرًا ما ضربت وجه (لي) أمام أعين (لانا) إذا أخطأت، أو نسيت، أو تأخرت في تنفيذ الأمر، وكثيرًا ما عذبت (لانا) في قهرٍ أمام أعين (لي) وينفطر قلبها وهي لا تتحرك ولا حتى تبكي بصوت، حتى وضعتهم على صراط مستقيم لا يحيدون عنه أبدًا.

وما إن بدأت (لانا) في الثانية عشر من عمرها حتى بدأت في حمل بعض المسئوليات عن (لي) في الطهي، وتنظيف الأواني، والأرضيات، وحتى في تحميم السيدة (تريزا)، وتنظيف ملابسها، وملابس السيد (لوثر)، بينما ظل (جوبا) خارج المنزل مهمته هي تقليم الأشجار، وتنظيف الحديقة تحت إشراف الحارس، وما إن يحلّ الليل عليهم حتى تتجمع الأسرة على بقايا طعام الأسياد ومن ثَمّ بعض الحديث عن اليوم ثُمّ النوم العميق.

---

[١] الأنعام: ١٦٤.

كان الحارس يعاملهم بدون تكبر ولا غضاضة بل جعل (جوبا) يتعرف على بعض العبيد في المنازل المجاورة في سرية تامة، وبدأوا يتناقلون الأخبارعن أبناء القبائل ومصيرهم، وعلم منهم أن (إيفي) ومن معه بالتأكيد سيكونون في المناجم وهذا هو مصيرهم حتى الموت، في هذا الوقت حزن (جوبا) على (إيفي) كثيرًا وبدأ يصلي له كما علمه الحارس الصلاة ويدعو له بالنجاة، وبدا العبيد في الالتقاء سرًا فهناك أسياد تسمح لهم بالذهاب وهناك مثل (لوثر) يمنع ذلك.

بدأ (جوبا) يحكي ما يسمعه من أخبار إلى (لانا) و(لي) وهم في شغف إلى مصير أبناء القبائل المجاورة وأسرار المنازل المحيطة بهم، إلى أن بدأ العبيد في التفكير لأخذ حقوقهم في الحرية المسلوبة منهم، عندها وافقهم (جوبا) في الرأي ولكن كيف هذا!! فقالوا أن يجتمعوا ويعتصموا وسط المدينة ويطلبوا مزيدًا من الحقوق.

بدأ بالفعل في التنظيم لذلك وعاد (جوبا) إلى (لي) ليخبرها بما سيفعله هو ورجال المنازل الأخرى من العبيد، عندها خرجوا جميعًا في خوف جماعي خوفًا من مصيرهم وما إن وصلوا إلى ميدان المدينة حتى بدا الجميع في الهُتاف مطالبين بحقهم في الكرامة ومزيدًا من الحرية.

وما هي إلا دقائق وانتشر الخبر في أرجاء المدينة فنزل (لوثر) مسرعًا إلى غرفة عبيدة ليطمئن قلبه فقط أنهم هنا، فتح الغرفة فإذا هي خاويةٌ على عروشها، فدخل المنزل فوجد (لانا) و(لي) عندها أمسك السوْط في ضجرٍ وضرب كلتيهما بقوةٍ قائلًا:

أين زوجك يا عاهرة؟! أين هو؟ إلى أين ذهب؟

وما إن أدميت أجسادهما حتى خرج مسرعًا إلى الحارس ليساله عن (جوبا)، عندها أنكر الحارس معرفته بما يحدث وقال انه لم يره، عاد (جوبا) هربًا من المعركة الضارية التي شنتها الشرطة عليهم حتى توفي فردين منهم برصاص الشرطة وجُرِح الكثير، وما إن وصل (جوبا) المنزل متلفتًا خلفه خشية أن يلحقه أحد حتى وجد نفسه أمام (لوثر) الذي انتظره ويحمل السيوط يده .

﴿ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾[١]

اعتاد شباب المناجم على العمل في انتظام كعقارب الساعة وبُنِي لكل مجموعة منهم غرفة صغيرة وسط المناجم، لم تعد الجنود تضربهم مثل بداية الأمر بل أنهم الآن أكثر عددًا من الجنود ربما أضعاف، تمر أعمارهم كالماء المنحدر ويقبضهم الموت كحبات العقد المنسدلة عند انقطاعه، وصل (إيفي) و(جون) إلى أواخر عقدهم الثالث ويُذكِّر كلًا منهم الأخر بيومٍ كانوا فيه أحرار؛ في ملبسهم، وتحركهم، فضلًا عن قرارات كلًا منهم، حَلُم كلًا منهم مرة أخرى بالحرية ولكن في هذا المكان ربما يصبح الحُلم كابوسًا بسهولةٍ فلابد مِن أن يكون سرًا، فكر (إيفي) و(جون) معًا فلم يجدوا غير الهروب طريقًا، وبالفعل بدا (إيفي) و(جون) بالترتيب لذلك وإقناع عدد قليل من العمال بذلك الأمر، فكانوا يعملون بكل جهدٍ في التحطيم صباحًا ثم يجتمعون ليلًا للتخطيط والهرب، وبالفعل تزعم هذا الأمر (إيفي) فكان أكثرهم شجاعة وقوة، وبدأ بزراعة الثقة داخلهم مرة أخرى، وأنهم قادرون على أن يحرروا أنفسهم، وطلب من كل فرد منهم أن يفكر في طريقة للهروب من هذا المكان الظالم أهله، وبالفعل وضع كل منهم تَصَوُّر ثم قبل ضم الجميع إلى المخطط طلب (إيفي) منهم أن يُقسِّموا عدد الأفراد جميعًا عليهم هم الخمسة فقط ،وبالفعل كان نصيب كلًا

---

[١] البقرة: ٩٦.

منهم عشرة أفراد أو يزيد، وطلب من كل فرد زراعة الشجاعة والإرادة واستثارة الحرية في نفوسهم دون الإفاضاء إليهم بأي تفاصيل، وبالفعل ظهرعليهم بعد وقت التعامل بمودة وصورة أفضل وبدأ يظهر لكل منهم رأيه حتى في صغائر الأمور وكبيرها حتى الخلاف لم يعد يطرق لهم بابًا.

﴿ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ ﴾[١]

عاد (جوبا) للجلد مرة أخرى فما إن رآه (لوثر) حتى انهال عليه ضربًا كاد ينهي حياته، نظر إليه الحارس وهو يبكي قلبه دون تحرك ولا حتى تعليق عما يحدث،حتى سقط (جوبا) من شدة الضرب أرضًا ظنوه صريع الموت فانصرف (لوثر) وهو يسبه، أفاقه الحارس وأدخله إلى غرفته وهو يهدىء من روعه حتى نظر إلى (لانا) و(لي) وهما داميتان الوجه، فازداد سقم على سقم وقال في قرارة ذاته ليتني مِتُ قبل هذا وكنتُ نسيًّا منسيًّا، ثم جاء لهم الحارس بالطعام خفية وأطعمهم وضمد جراحهم وحاول أن يطمئن قلوبهم، بعد هذا الاعتصام ذاق جميع العبيد الويل وكأنهم مازالوا على سفينة (سيزي)، فقد ترى في هذه الأيام جثث سوداء تنهشها كلاب الشوارع وسط المارة، أو ترى عبدًا أسود اللون مربوط على شجرة أمام منزل أحد الأسياد ينتظرالموت، أو ترى طفلًا صغيرًا يبكى بجوار جثة أمه التي لا تجد من يواري سوأتها، إن حنّ عليه أحدهم بعد أيام سيخطفه ليكتب له الحياة في مذلة والديه حتى يلقى مصيرهم ذات يوم، وما أن تنوقلت الأخبار في المدينة حتى ظهر الرعب مرة أخرى في قلب (لانا) و(لي) و(جوبا)، وكان يلاحظ هذا الخوف الحارس كلما حدثهم بمصير أحد العبيد المجاورين لهم، تناثرت الأخبار خارج المدينة بل خارج البلاد

---

[١] مريم: ٢٣.

فحاولت الدولة حل هذه الأزمة في ذلك الوقت فأمرت لهم ببعض الحقوق؛ كان أولها: هي عدم قتلهم دون محاكمة، أن يتعالج مريضهم كالبشر في المشفى العام، أن يلتحق من أراد منهم بالتعليم، توفير دار لعجائزهم إذا انتهت خدمتهم، دفنهم في مقابر خاصة بهم خارج المدينة.

استفاد الجميع من هذه القرارات حتى عمال المناجم، عندما علم (جوبا) لم يفرح إلا لأن (إيفي) لن يُقتل دون محاكمة ولكن سريعًا ما تحولت تعبيرات وجهه إلى حزن وسأل نفسه، هل ما زال حيًا ؟ أخبرهم الحارس أن من حقهم الآن أن يعلموا (لانا)، رفض (جوبا) و(لي) في بداية الأمر ولكن بعد جدال كثير استقر الأمر على تعليمها،

استاذن (جوبا) السيد (لوثر) بعد عدة أسابيع في ذلك وكان بجواره الحارس ذهب لشد أزر رفيقه، فوافق السيد (لوثر) بشرط ألا تقصر في عمل المنزل، وفى هذا الوقت أتى لها الحارس بثيابٍ من ثياب ابنته التي تقاربها في العمر ففرحت بها كثيرًا، واستعد الجميع إلى هذا الأمر العظيم وهو ذهاب (لانا) إلى المدرسة وستتعلم وتكتب وتقرأ، في هذه الأيام كان التقاء العبيد ببعضهم البعض أمرًا طبيعيًا فكان يتذكر كل منهم وضعه وحياته وهم في غاية السعادة بما وصلوا إليه من حرية كأنما حيزت لهم الدنيا بحذافيرها .

﴿ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ ﴾[١]

في هذا اليوم وكأنه العيد استعدت (لانا) للذهاب إلى المدرسة، شعرت كأنما وُهِبت لها الحياة، شعرت بميلاد جميل جديد لم يكن هذا شعورها وحدها بل كان شعور أسرتها والحارث، صففت لها (لي) شعرها ثم ضفرت شعيراتها الخشنة، وألبسها (جوبا) في غمرة من السعادة ثيابها الجميلة التي أحضرها الحارس، وودعتها (لي) وذهبت بصحبة (جوبا) والحارس إلى المدرسة، دخلت (لي) إلى السيدة (تريزا) التي أضافت كثيرًا من الأعمال إلى (لي) حتى تنهكها ومن ثم تجلس (لانا) لتقوم بأعمال المنزل، فكانت (لي) تعمل بكل جهدٍ وتحمُّل حتى أتمت عملها وهي في غاية السعادة، وما إن وصلت (لانا) إلى المدرسة حتى يرمقها الجميع بنظراته الحادة فينظرون في ذهولٍ؛ مَن هذه السوداء؟ ولماذا أتت إلى هنا؟ وكيف لسوداء بعيون زرقاء متسعة كهذه ؟

ظل الحارس بجوارها و(جوبا) معهم حتى أدخلوها إلى غرفتها في المدرسة ثم انصرفوا ينتظرونها، دخلت المعلمة إلى الفصل وما إن رأت (لانا) حتى نظرت إليها بعيون حادة وأجلستها في آخر الفصل، وتعرفت على جميع الطلاب إلا (لانا)، سألتها فقط مَن أتى بك إلى هنا؟ فأجابت أبي، ثم تجاهلتها بعد نظرة غضب، عادت (لانا) وهي في غاية الخوف فلا تدرى

---

[١] الروم: ٢٢.

لماذا ينظرون إليها بشمئزاز؟!! وماذا فعلت هي لتغضبهم عليها هكذا؟!!! وما إن خرجت وحيدة كما كانت بالداخل حتى وجدت الحارس و(جوبا) ينتظرانها بابتسامتهما الجميلة، فعادت معهم إلى المنزل لتجد أمها في شوْق إليها وتضمها كأنها غابت عنها دهرًا بأكمله، ثم سألتها ماذا رأيتِ في الشارع؟ وماذا فعلتِ في المدرسة؟ وماذا تعلمتِ اليوم ؟

كأنما تحيا (لي) في حُلمٍ تخشى أن تستيقظ منه، فأجابتها (لانا) وهي لا تريد أن تكسر فرحة أمها بكل شيء حسن رأته فقط، وجعلت التنمر سر دفين في أعماقها، وبعد عدة أيام تأكد (جوبا) والحارس من معرفة (لانا) للطريق فأوصلوها وأخبروها أن تعود وحدها للمنزل، وما إن انتهت (لانا) من اليوم الدراسي وخرجت إلى البيت وهي تحمل كتبها بيمينها وضمتهم إلى صدرها، وإذ بعدد ليس بالقليل من الأطفال خلفها يسبُّونها ويدعونها بالسوداء، وما إن نظرت إليهم لتراهم في ضحك واستهزاء يسبُّونها، فبكت هذه الصغيرة وهم خلفها يقذفونها بالحجارة لا لذنب فعلته بل لأنها فقط سوداء البشرة حتى سمع الحارس وهو يجلس أمام المنزل صوت الأطفال يزفونها فنظر من بعيد وإذ هي (لانا).

فهرول إليها مسرعًا وأبعد الأطفال عنها وحملها وهي تبكي وأعادها إلى الغرفة، وعندما رأتها (لي) أشتد قلبها حزنًا وبكت فاأكت الحارس و(جوبا)،قال الحارس لن أتركك يا (لانا) سآتي كل يوم لنعود معًا، فقالت (لانا) في بكاء لن أذهب ثانية يا سيدي.

﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾[١]

رتب (إيفي) و(جون) تفاصيل الهرب وهم تحت ضوء القمر يتهامسون، وأعطوا بعض منها إلى الأفراد الخمسة أصحاب القرار وطلبوا من كل منهم يُعْلِم مجموعته ببعض التفاصيل التي تهمه فقط، ثم بدأو بتقسيم الأدوار فهناك من سيقطع السلك الشائك، وهناك مَن سيشغل الحراس، وهناك من سيصنع ضوضاء وصريخ سيهديهم إلى الطريق، بعد عدة ليالي قرر (إيفي) و(جون) ساعة الصفر واتفقا ألّا يعلموا أحدًا موعد الهروب إلا قبلها بعدة دقائق، وما إن حان الوقت المعلوم إلا وقد أخذ كل فرد فأسه من مجموعة قطع الأسلاك وانتظروا الإشارة من قائدهم، وبدأت المجموعة الأخرى باصطناع حريق وهمى داخل إحدى الإنفاق ثم خرجوا مسرعين وهم يصرخون حريق داخل المنجم حريق!! حريق!!

سادت الضوضاء المكان فأشار (إيفي) إلى قائد مجموعة قطع الأسلاك فبدأ بالفعل، وخلال دقائق كان الجميع فى استعداد للفرار، وما هي إلا ثوانٍ وبدأ الجميع في الفرار والحراس داخل المنجم يحاولون إخماد النيران المشتعلة، بدأ الصياح يقل بعض الشيء فقد خرج عدد كبير من العبيد فرارًا إلى أرض الحرية، كان (إيفي) و(جون) يقفون يخرجون الأفراد بسرعة ويحمسهم (إيفي) بصوته الخافت هيّا أيها الأحرار، رآهم أحد

---

[١] القصص: ١٨.

الجنود فنادى مسرعًا هروووب، في هذا الوقت لم يتبق منهم الكثير داخل السياج ومع ذلك لم يتحرك (إيفي) ولا (جون) من أماكنهما، حتى بدأ الحراس بالاتجاه نحوهم عندها صرخ جون هيّاااا، ركض كلاهما بسرعة البرق ولكن لحقت بقدم (جون) اليسرى رصاصة أطلقها أحد الجنود، عندها أمسك به (إيفي) وسقط كلاهما أرضًا والجنود خلفهما في لحظات، أشار (جون) إلى (إيفي) بالانصراف ففر (إيفي) مسرعًا تاركًا جُرحه ينزف خلفه، انقض الجنود فوق (جون) ضربًا بالأقدام وفرّ جميع الأحرار إلى ميدان جديد إلى مجهول لا يعلمونه، فرحوا وغمرتهم السعادة بعد رحلة المخاض هذه، ولكن للأسف لم يتجمعوا فلقد ذهب كلٌ منهم في اتجاه حتى (إيفي) ظل يركض في هيستريا الموقف العصيب المفاجئ وشعوره بالنجاح وتحقيق الحرية من جديد، لم يكن سهلًا أبدًا، بعد يومين من الفرار إلى المجهول توقف (إيفي) وهو لا يعلم أين هو، ولا إلى أين يتجه، يخشى جميع البشر إن رأى منهم أحد، إلى أن هداه قلبه لرجلٍ مسنٍ يجلس أمام منزله قَدِم إليه (إيفي) بعد أن أعياه الجوع والعطش، عندها سأله المسن عن اسمه وعمله ودار بينها حوارٌ طويلٌ، عندها ولأول مرة بحياة (إيفي) يرى رجلًا أبيض له قلب، قصّ عليه قصته وطلب منه طريقة يرى بها والديه، فنصحه الشيخ المسن بالفرار خارج هذه المدينة الظالم أهلها، فخرج منها خائفًا يترقب يهتدي بكلام المسن ويمشي بمعالم الطريق التي أخبره بها المسن ذاهبًا تجاه كندا.

﴿ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ ﴾[١]

أخذ الحارس (لانا) من يدها وذهب بها إلى المدرسة بعد أن حفّزها ووعدها بالانتصار لها، وبالفعل ذهب مبكرًا وتحدث إلى مدير هذه المدرسة واشتكى له من جميع العاملين الذين أهانوا (لانا)، بعدها فورًا ذهبت (لانا) غلى غرفتها وهو في انتظارها كل يوم في هذا الحال، عاد الحارس إلى المنزل و(جوبا) و(لي) كل منهما فى عمله؛ فـ(جوبا) ينظف بيت الكلاب وينظف الحديقة، وزوجته في الداخل تنظف المنزل وتقلم أظافر السيدة (تريزا)، ثم ذهب (جوبا) إلى رفاقه في المنازل المجاورة ولكن هذه المرة ليست جلسة مرح وتناقل أخبار بل هناك أمر آخر؛ وهو اعتصام جديد يدعو له رفاقه لتزداد حريتهم بعض الشيء فهم يريدون راتبًا مقابل العمل، ويريدون الانخراط بصورة أكبر في المجتمع كتكوين تجارة خاصة بهم، أو السفر، أو امتلاك منزل، أو الزواج من بيضاء، والإفراج عن أبناء المناجم، اعترض (جوبا) وآخرون من جموع الحاضرين ولكن الأكثر منهم كانوا يريدون الحرية، وفي كل يوم يتناقشون كان يعارضهم (جوبا) ويخشى عليهم مما حدث قبل هذا ويذكرهم بالجثث التي انتشرت والدماء التي سالت، ولكن لم يوافقوه الرأي فعاد إلى منزل سيدة وتذكر الجلد وتذكر وجه (لانا) و(لي) الدامي، وتذكر السوْط بيد سيده (لوثر)، فذهب بسرعة

---

[١] عبس: ٣٤.

إلى السيد (لوثر) وقال له سمعت أقراني العبيد ينظمون لاعتصام جديد ولن أشارك معهم.

فنظر إليه وسأله متى هذا الاعتصام وأين، فأخبره (جوبا) ثم قال له انصرف، وأسرع (لوثر) وذهب ليبلغ الشرطة فوجد رجلًا آخرًا من سكان المدينة ذهب لنفس السبب، وعندما سأله (لوثر) من أين علمت فقال له عبدي المطيع .

بدأت الشرطة في تمشيط المكان قبل الموعد بساعات وحذروا العبيد من الخروج إلى الشارع في ذلك اليوم، وجلس (لوثر) بالسوط داخل حديقته، وأمر (جوبا) بالدخول إلى غرفته ولكن لم تمنع الشرطة العبيد من الخروج ليستنشقوا رحيق الحرية ولو لدقائق يعبرون فيها عن أنفسهم، عن ذاتهم، عن حريتهم المسلوبة، بدأت الشرطة في تفريق العبيد ولكن لم يستطيعوا هذه المرة فقد كان عددهم أكبر مما كان عليه المرة السابقة، ولم يجد كلا الفريقين طريق إلا الاشتباك، عندها بدأ العبيد في ضرب الشرطة وكُسرت هيبتهم أمام العبيد واختطفت الشرطة عدد منهم وضربت الآخرين بكل قوة، حتى هرب الجميع بعد عدة ساعات من الاشتباكات.

وفي صباح اليوم التالي خرج الحارس إلى مدرسة (لانا) وخرج بعده بفترة قصيرة (جوبا)، الذي ذهب إلى العبيد حتى يطمئن لما فعلوه ويعلم أخبارهم، فكلما سمع عن ضرب أحد أو سجن الآخر قال لهم ألم أقل لكم؟ هذه النتائج من قبل ولكنكم لا تعلمون؟!! فأجابه أحدهم أنت تنظر تحت قدميك لا تريد حياة كريمة إلى (لانا) أو (لي) من بعدك، لا تفكر

بابنك المسجون وسط خنادق الفحم إن كان حيًا، أنت يا (جوبا) تفكر بنفسك فقط .

وأقيمت بعدها بأيام المحكمة التي قضت بإعدام عدد منهم وسجن الآخرين، أقاموها دون محامين عنهم وكأنها مسرحية هزلية أمام العالم الخارجي فقط، عادت (لانا) وقد سمعت ما حدث في اليوم الماضي، فذهبت إلى (لي) و(جوبا) وسألتهم ما سبب ما حدث ؟ فقال لها (جوبا) سأخبرك يا صغيرتي منذ كنا في الأدغال.

وبدأ (جوبا) يحكي لها تاريخ قبيلته من جده الأكبر حتى (لانا) أصغر الأحفاد، وأخبرها بالكاهن الكاذب، وكيف كانوا أحرارًا، وأخبرها عن نفسه وهو زعيم القبيلة وأخبرها ب(إيفي) وشجاعته وقوته، كانت تنظر إليه (لانا) في اندماج وشوْق إلى هذا التاريخ العريق، ومن هنا نبتت الحرية والحنين لها مرة أخرى في قلب (لانا)، وما إن انتهى (جوبا) حتى بدأت (لي) في القصص واندمجت (لانا) وبدأت تطرح الأسئلة.

﴿ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ ﴾[١]

وما إن أدخلوا (جون) إلى المنجم مرة أخرى حتى انهالوا عليه ضربًا كادت أن تخرج روحه تحت أقدامهم، اقترح أحدهم قتله وصَوَّب سلاحه في وجه (جون) ولكن نهره جنديٌ آخر حتى يأتي القائد، وعندما وصلهم (مايكل) قال لهم اتركوه فهو مَن سيدلنا على أماكنهم، وجاء بالجندي المسؤل عن حراسة الأسلاك وقام بتحويله إلى المحكمة بتهمة الإهمال حتى يتم فصله من الخدمة، فأخذه (مايكل) إلى المعسكر وأمر الجنود بضربة ضرب يؤلم دون تكسير أو موت، وعاد إليهم بعد عدة دقائق وأوقفهم عن ضربه، ثم أدخله إلى غرفة وجَرّده من ملابسه جميعها، ثم عصب عينيه وكأنها هي العورة في جسده، ثم أوقفه وخلفه جندي لعدة ساعات كلما أراد الجلوس أو شعر بألمٍ في قدمه وأراد الجلوس ضربه الجندي بالكرباج على ظهره، وبعد أن انتصف الليل وكادت أقدامه أن تفكك من بعضها البعض وشعر من الوقوف كأن جسده تجمّد وتيّبس أدخله الجندي إلى غرفة كئيبة المنظر، صخرية الجدران، وسقفها خشبي به حلقات حديدية وخطاطيف، أخذه (مايكل) وعقد يديه كليهما ببعضهما البعض خلف ظهره، ثم رفعه فوق كرسي خشبي وعقد يديه المعقودة خلف ظهره في حلقة من حلقات السقف بإحكامٍ شديدٍ، ثم سحب الكرسي من تحت

---

[١] ص: ٥٧.

أقدامه ليسقط جون معلقًا في الهواء وتهتك أكتافه فيصرخ صرخة تفزع لها أسراب الطيور الساكنة، ثم ببرود شديد سأله (مايكل) أين ذهبت الحشرات أمثالك ؟ فصرخ في رجاء لا أعلم، ارحمني، فلم تشفع له هذه التضرعات ولا هذا الصراخ، فأخبره مايكل أنها مازالت الرحلة الأولى من العذاب، وإن لم تخبرني بمكانهم سأجعلك تتمنى الموت ثم لا تجده،

وتركه (مايكل) يصرخ طوال الليل وهو يقول له يسعدني سماع صراخك حتى بزغ الفجر و(مايكل) يقول له اصرخ أكثر فلن أنزلك حتى تخبرني أين هم الآن؟ فقال له حسنًا سأخبرك انزلني، فقال له لن أنزلك حتى تتحدث، فصرخ (جون) لن أستطيع التحدث،

فأمر (مايكل) الجنود فانزلوا هذا العاري وألقوه على الأرض، فوضع (مايكل) قدمه فوق رأس جون وقال له بصوتٍ عنيفٍ أين الجرذان أمثالك؟

فقال له (جون) جلستُ أنا و(إيفي) ونحن مَن أقنعناهم بالهرب، وخططنا لقطع السلك، وإشغال الحرس بالحريق، ثم أن نخرج من السياج ونجري بعيدًا عنكم فقط، فقال (مايكل) بنبرة هادئة إلى أينأيها الشاب المطيع، فقال (جون) لا أدري يا سيدي، فوضع (مايكل) قدمه فوق إصابه (جون) في قدمه فصرخ (جون) صرخة تارك للصلاة محمولًا على أربع ذاهبً إلى قبره، ثم رفع (مايكل) قدمه فنطق (جون) مسرعًا كان هدفنا أن نخرج فقط إلى الحرية، فضحك (مايكل) وقال له لقد تركوك وهربوا فلماذا تدافع عنهم لن ينفعك الإنكار فلتتكلم خيرًا لك.

جاء (مايكل) بعدها بخنجرً أحمر لونه من اللهب وبدأ بهدوء تام يضع الخنجر على جسد (جون) الذى أرادأن يقتل نفسه لو استطاع فهو لا يعلم الغيب، كاد يقسم (جون) بكل الديانات أنه لا يعلم شيئًا ولكن لم يصدقه (مايكل)، فأمر (مايكل) جنوده أن يثبتوه أرضًا على ظهره، وبالفعل نام على ظهره ويداه مقيدتان خلف ظهره ومسك (مايكل) السوْط، وبدأ يجلده في أماكن حساسة فكانت كماسٍ كهربائي يرجف جسده العاري بلا رحمة، فلا يستطيع التحدث أبدًا، كل ما فعله كان الصراخ حتى قُطع نفسه، عندها ترجاه (جون) أن يقتله حتى يرتاح من هذا العذاب، فضحك (مايكل) وقال لن أعطيك هذه الأمنية الآن، فعلم (جون) أنه ميت بعد وقت، وفي ألوان العذاب جميعها كان يتقلب (جون) ويعد الأيام بعد الأيام في انتظار الموت يتمنى أن يأتيه سريعًا فيرتاح مما هو فيه، كان لا ينام (جون) إلا ويضعون فوق جسده العاري ماءً باردًا؛ حتى لا يذق للنوم طعم، ألم يعلموا أن الصمت في هذا المكان عذاب بل والمرور بجواره فقط!!!!

إذا سمع صوت أقدام الجنود يقشعر جسده ويظن أنها رحلة عذاب جديدة، وإذا فتح أحدهم باب الغرفة أُقْتُلع قلبه من مكانه، كان يقول في قراره نفسه لو أن هذا هو جحيم ما بعد الموت لكان أولى بنا أن نعبد الإله دون توقف؛ فمن أصعب الأمور على البشر أن تجد نفسك في مكان لا يعلم عنك أحد فيه شيئًا، تستنجد فلا تجد المنجد، تصرخ فلا يسمعك أحد، معصوب العينين فتسمع خطوات المارة كأنهم جاءوا ليقتلوك، حتى صوت الماء فتظن أنهم جاءوا بالبحر كي يغرقوك، فضلًا عن أنك وسط

قوم قلوبهم كالحجارة بل أشد قسوةً، وفي صباح يوم من أيام (جون) دخل عليه (مايكل) وأمر الجنود أن يفكوا أعين (جون) المعصوبة منذ أيام، وقال له إنك صادق يا (جون) أيقنت أنك لا تعلم أين ذهبوا، ثم أطلق عليه كلبًا كبير الحجم يسيل لُعابه ذا أنياب حادة مرعبة، فتزحزح (جون) إلى الخلف على مقعدته وهو مقيد اليدين ينظر إلى أعين الكلب التي ترمقه في نَهَم، وتركه مايكل حتى ينتصر أحدهم على الآخر.

﴿ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[١]

ذهبت (لانا) في اليوم التالي إلى المدرسة ولكن هذا اليوم مختلف؛ فهي تنظر إلى مَن حولها ولا تشعر بأي نقص؛ فقد علمت أنها وُلدت حُرة وأن لها تاريخ وأجداد كما أنهم لهم آباء أحرار وازدادت هذه الثقة عندما بدأت تتجاوب مع المعلمين في المدرسة، فكانت ذات عقل نجيب ولهذا علم كل المعلمين اسمها وبدأ التلاميذ في المدرسة ينظرون إلى (لانا) كأنها واحدة منهم ليست شاذة عن القاعدة، انتظرها الحارس كعادته وذهبا إلى المنزل ولأول مرة يراها تتراقص في يده أثناء عودتهم، عندها سألها وهو مبتسم ما سر التراقص يا جميلتي ؟ فأخبرته أنها أجابت على سؤال لم يستطع أحد من التلاميذ الإجابة عليه، فاشترى لها قطعة حلوى بعد أن قبّلها وأخبرها أنه فخورٌ بها، وما إن وصلوا إلى المنزل حتى أخبرهم الحارس بسعادة ونَهَم لقد تميزت (لانا) جميلي الصغيرة على أقرانها، و(لانا) تقف خلفه مبتسمة الوجنتين فاحتضنتها (لي) وقبّلها (جوبا)، بدلت (لانا) ملابسها كعادتها وذهبت إلى السيدة (تريزا) تكمل ما قامت به (لي) منذ الصباح، ورغم كره (تريزا) لهم جميعًا وتعاملها السيء معهم إلا أنها كانت ترتاح قليلًا إلى (لانا)، نظفت (لانا) الأواني، ونوافذ المنزل، والأرضيات جميعها، ثم دفأت الماء، وجلست تحت أقدام السيدة (تريزا) حتى تدلكها

---

[١] الحج: ٣٨.

بيديها الصغيرتين، ونظفت سرير نوم السيد (لوثر) ثم نزلت إلى غرفتها، لم يكن هناك أصدقاء ل (لانا) فقد كانت وحيدة التفكير معدومة المرح واللعب إلا أحيانًا من الوقت مع الحارس، لم يكن لها أسرار كانت (لي) تعاملها كصديقتها لا لشيء إلا لأن (لي) كابنتها بدون أصدقاء، نشأت (لانا) و(لي) داخل قفص واحد لم تخرج منه (لانا) إلا ذهابًا للمدرسة ثم تعود إلى سجنها مرة أخرى تعيش في دائرة مغلقة رسمتها لها الحياة، وربما هذه الحياة هي من انضجت فكرها وميزت عقلها، فهي تتحاور دائمًا مع مَن أكبر منها سنًا وعقلًا وفي الوقت ذاته تتحاور وتتجاوب معهم، جلست مع (جوبا) و(لي) وهما في غاية الفخر بها، أحبت (لانا) تاريخها فمنذ ذلك الوقت وهي لا تمل من الحديث والأسئلة عن تاريخها وهذا ما كان يسعد (جوبا) كثيرًا، وبعد أن انتهى الحديث ترك (جوبا) أسرته وذهب إلى رفاقه وما إن وصل إليهم وألقى إليهم التحية فصمتوا جميعًا ولم يرد عليه أحد.

_فسالهم ما بكم ؟

فرد كبيرهم اخرج ولا تعود إلى هنا ثانية.

_لماذا ؟!

أنت تعلم السبب.

_ما بكم ؟

ألم تخبر سيدك بموعد الاعتصام؟ أنت يا (جوبا) تتحمل ذنب من قُتلوا ومن سُجنوا جميعًا، ألم تُرحم من الجَلْد بعد الاعتصام الأول؟ ألم تدخل ابنتك المدرسة؟ أنت مثال سيئ لمن يريدون الحرية يا (جوبا) .

عاد (جوبا) إلى أسرته مطأطئ رأسه يتوارى من القوم وما إن دخل إلى غرفته حتى أغمض عينيه ولكن لم يذق النوم جفونه، فيفكر لم أعد أنا (جوبا) القائد الزعيم ويتضارب عقله فيقول كان لابد أن أخبره حتى لا يضرب (لانا) و(لي)، ثم ولكن هناك عدد أكبر تم إيذائه بسببي، لا لقد كنت أخشى عليهم من القتل الجماعي كما حدث قبل ذلك، وتراوده نفسه بالاعتذار لهم ولكن لقد فقدوا الثقة بي، لن يفيد الاعتذار.

وبعد تفكيرٍ لم يجد وسيلة لراحة ضميره إلا بزرع الحرية في صدر أسرته وتحمل عواقبها بكل رضا وثقة، وفي صباح اليوم التالي أخذ (لي) وذهب إلى المدرسة وهو يخبرها عن جمال الحرية وشعور الأحرار والطمأنينة السائدة قلوبهم وبيوتهم، ولابد أن تتعلم حتى تحقق لهم الحرية جميعًا وتكون ابنة (جوبا) هي مَن حررت العبيد، لم تستوعب كلامه بسهولة (لانا) ولكنها شعرت أنه كلام جميل، وأن والدها فخور بها واثق في قدراتها، وانتظرها حتى خرجت ليعودا معًا، وفي طريقهم للمنزل كلما التقيا بأحد العبيد لم يتحدث إلى (جوبا) ولم يحدثه (جوبا)، فنظرت إليه (لانا) من الأسفل لماذا لا تحدث فلان وفلان يا أبي؟! فأجابها أحب الحديث معكِ أنتِ يا جميلتي. وما أن وصلا إلى المنزل حتى بدا (جوبا) بتنظيف الحديقة وتقليم بعض الشجيرات، وذهبت (لانا) إلى (لي) وبدلت ملابسها وذهبت لمنزل الأسياد.

﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾[١]

مرت الأيام في تشابه، وكبرت (لانا) وذهبت إلى الجامعة وما زالت في تقدم وتفوق يتلوه تقدم، عادت إلى المنزل في انكسار طال عليها من بعد وفاة والدها (جوبا)، بعد أن عانى أشهر كثيرة من المرض وذهبوا به إلى مشفى المدينة، فعدما ينظرون إليه يضعونه أرضًا حتى ينتهي الأسياد وأبناؤهم من العلاج، ثم في عُجالة ينظرون إليه ويوصفون له بعض الأعشاب ثم بعبوس وجوههم يخرجوهم خارج المشفى، كان (جوبا) مصدر أسقام المدينة، يعاملونه كحيوانٍ بريٍّ مصاب، ربما يعطف عليه أحدهم أو يجهز عليه الآخر، انعدمت في قلوبهم الرحمة والشفقة تجاه العبيد حتى أن (جوبا) عندما يذهب يعود أسوأ ما كان عليه، وفي أيامه الأخيرة ظل يوصي (لانا) بأمها خيرًا وبالحارس ويطلب منها أن تحترمه وتطيع أوامره كأنه (جوبا)، ولَقّنَها كلماتٌ كانت وصيته لها؛ وهي أن لا تتنازل عن الحرية ولو كان ثمنها الحياة، أن تطالب بحق الجميع لا بحقها وحدها، أن تجعل العلم هو نورها في طريق العبودية المظلم وأنه سلاحها أيضًا في استرداد حريتها .

حتى آخر أنفاسه التي لفظها وهو يقول (لانا) عزيزتي لا تنسي وصيتي، وما لبث (جوبا) تحت الثرى بضعة ليالي حتى لحقت به السيدة (تريزا)

---

[١] البقرة: ١٨٠.

وبدون أي مرض يذكر، فحتى آخر ساعات لها في الحياة وهى بكامل قوتها وبطشها الشديد، ولكن لم تلحق بثرى (جوبا) فهناك مقابر للعبيد وأخرى للأسياد، حتى أن قبر (جوبا) لم يكتب عليه اسمه فقد مات كما عاش مجهولًا، وما أن وصلت (لانا) إلى أمها المسكينة المنكوبة القعيدة حتى قبّلتها، ثم بدلت ملابسها وذهبت إلى السيد (لوثر) لتعد له الطعام، كبر (لوثر) وأغرق الشيب رأسه وانحنى ظهره بعض الشيء بل وتقلص صوته المزعج العالي، نظفت (لانا) المنزل، والأواني، وطهت الطعام لسيدها، ثم عادت تحمل إناء الحساء إلى أمها بعد أن أعدته لها بمنزل السيد (لوثر)، وجلست تحدث (لانا) عن كَم الحنان الذى كان يحمله (جوبا) بداخله وكم كان يدافع عنهما معًا وكيف كانت تفتخر به ومازالت؟ سالت الدموع من العيون الزرقاء في همس من بكاء الاشتياق، وأكملت مع أمها ذكريات لا تنفصل عن خاطرها منذ أن فارقها (جوبا)، قطع حديثهما الحارس بنداءٍ على زرقاء العيون فخرجت مسرعة تجاه صوته الذى خرج من شرفة السيد (لوثر) فقد أغشي عليه، أسرعت لانا بإسعافه كما تعلمت في المدارس وبالفعل فتح عينه بعد دقائق، حملته زرقاء العيون والحارس وأجلساه على مرقده، ثم ذهبت إلى المطبخ ونظفت إناء الشرب وملأته بالماء وأتت إليه، فرفعت رأسه بيدها اليسرى وبمساعدة الحارس وأشربته بيمينها، ثم قامت بتدليك قدميه حتى بدأ بالنطق ونظر إليها مبتسمًا ثم مسح على رأسها فضحكت من فرحتها، عندما حلّ الليل عليهم طلبت من الحارس أن يبقى مستيقظًا بجوار السيد (لوثر) حتى تعود إلى أمها، عندما دخلت على (لي) غرفتها سألتها عن سبب صياح الحارس وعن سبب

تأخرها، فقصّت عليها القَصص ثم نامت (لي) فأتت (لانا) باللحاف وسترت به (لي)، ثم تحركت كاللصوص وأشعلت القنديل ضئيل الضوء، وجلست تتمتم بما تعلمته في الجامعة هذا اليوم وفي صباح اليوم التالي ذهبت مبكرًا إلى السيد (لوثر) فوجدته نائمًا والحارس يرقد بجواره، فأسدلت عليهما غطاءً من البرد ثم عادت إلى غرفتها وبدلت ملابسها ووضعت الطعام أمام مرقد (لي) ثم انصرفت إلى الجامعة .

﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾[١]

ذهبت (لانا) إلى الجامعة كعادتها متناسقة القوام، نظيفة الثياب، شعرها مصفف، وأظافرها مقلمة، وتمشي في ثقةٍ؛ فقد كانت هذه الجميلة أشهر الفتيات بل الطلاب جميعًا بتفوقها وفراستها وحديثها الموزون، كانت تشرح المحاضرات لمن فاتته المحاضرة، ولم يسألها أحد شيئًا حتى تعطيه من علمها الوفير، تفوقت على الجميع خلال سنوات الدراسة حتى ظنوا أن الجامعة ستغير القانون وتمنح العبيد حق التدريس إجلالًا لها.

وفى آخر عام من الدراسة قامت لانا بالتفكير في شيء يحقق لها حُلمها الدائم، فبدأت بتجميع الطلاب حولها في ندوات ثقافية واستعانت ببعض المتميزين معاها في هذا الأمر، وحددت يوم ثابت من كل أسبوع ازداد عدد الطلاب شيئًا فشيئًا، وكان أحد المتميزين يتحدث عن التاريخ، والآخر عن الطب، وهي تتحدث عن التشريع والقوانين كما كانت تدرس وتتعلم، وأمدتهم الجامعة وساعدت هؤلاء المتفوقين على الارتقاء بأقرانهم، بدأ العدد يتزايد عشرات، الطلاب ثم مئات.

وفى إحدى هذه الأيام طلبت صاحبة العيون الزرقاء الحديث أولًا، وبدأت تتحدث عن بعض المشكلات القانونية والعرفية التي تمس حياتهم

---

[١] المائدة: ٣٢.

وتضيق الحكومة عليهم، وانتشار الغش في البيع والشراء، واحترام القوي، وعدم انصاف الضعيف، وتميز أبناء الأسياد حسب غنى آبائهم، فانتفض الجميع مصفقًا لها وهاتفًا معها العدل أولًا، في هذه اللحظة شعرت زرقاء العيون بنشوة النصر، وأنها استطاعت التأثير في جمهورٍعريضٍ أمامها وأعطت الكلمة لزميلها الطبيب، الذى أثنى على حديثها وأكمل لابد لنا من تغيير مستقبلنا ومستقبل أبنائنا.

هتف الجميع باسم العدل، وبدأ الطلاب الثلاثة يحضرون خُطبهم معًا حتى يقدموا نموذجًا جيدًا لأقرانهم من الوعي والرقي الفكري المعرفي، وبعد أن قفزت شهرتهم خارج أسوار الجامعة وانتشرت في أرجاء المدينة بدأ يتابع هؤلاء الشباب عدد من أهالي المدينة يذهبون إلى الندوات ليستمعوا ويعوا الأحداث، وبدأت صاحبة العيون الزرقاء بإخراج مكنونات صدرها إلى زميلها وعن تاريخها، وكيف كانت حُرة؟ ومتى أصبحت عبدة ؟ وكيف عانت عندما ذهبت إلى المدرسة؟ وكيف كُسرت أمام والديها والعكس؟ وكل ذلك لسبب لا يوقن به متعلم أو مثقف، هل كل ذنبي يا رفيقي أن بشرتي سوداء ؟ هل يحق للقوي أن يسخر الضعيف لخدمته؟ في أي شرعٍ يجوز لطبيب أن يهمل مريض لفقره أو لونه؟

تعاطف كليهما معها وتناقشوا في هذا الأمر عدة ساعات متواصلة، وطلبت منهم أن يبدأوا هم الحديث في هذا الأمر والمطالبة بالمساواة بين جميع أبناء هذا الوطن، وفي الندوة جلست صاحبة العيون الزرقاء وبرفقتها زميلاها تصلي وتدعو الرب أن يشرح صدور الطلاب إلى المساواة، فهي تعلم كيف يكون لطلاب الجامعة أثرهم في المجتمع بكل طوائفه.

بدأ الطبيب بذكر أمجاد أجداده وذكراهم الخالدة، وأنهم كانوا يتعاملون بفطرة وطهارة وصدورهم نقية، ولكن كلما تقدمنا وتطورنا انشغلنا عن ضمائرنا وشغلتنا أموالنا وأهلونا وصار الغني منا يستحقر الفقير ويسطو عليه.

وفي شجن تستمع ذات العيون الزرقاء إلى حديث الطبيب وسط تمتمة من الجماهير بالاتفاق مع الطبيب في كلامه، ثم قال وأيضًا لا لأننا فقراء وأغنياء بل لأكثر من ذلك فقط لاختلاف بشرتنا في اللون، هل يعقل هذا؟!!!

فبدأ الهرج في المكان وازدادت الضوضاء، فصرخ:

- اسمعوني حتى أتم كلامي، هل يستطيع أحد منكم أن يتحكم في لون عينيه أو في لون بشرته؟

فرد عليه أحدهم:

ولكن اشتريناهم بحُر أموالنا، فقال ويكون هذا رأيك إذا فُتح سوق لتجارة البيض واختطفناك وقمنا ببيعك فيه.

فصمت الرجل، ثم قامت صاحبة العيون الساحرة الزرقاء وقالت:

لقد خلقنا الرب من رحم واحد، وجعلنا شركاء في الهواء والماء، ولم يجعل له سلطان علينا في هذه الأشياء، فكيف لمخلوق مثلي يمنعني من الماء والهواء ؟كيف يجلدني دون رقيب ؟كيف يخفيني وينفيني؟ أليس منكم رجل رشيد ؟!!

يا سادة اليكم قصتي؛ لقد كنت أحيا وسط أهلي وقبيلتي كريمة حرة، كنا نستنشق رحيق السعادة، كان جدي زعيم القبيلة ومن بعده والدي، كنا نأكل ونلبس ما يحلو لنا لم يستطع أحد أن يملي علينا قرارًا، كنا أسياد أنفسنا نمتلك الغابة بأكملها ثمارها وأشجارها وما بها من حيوانات، كان لنا رأي وإرادة، كنا ننام في أمان وسط أحضان والدينا، تحكمنا قوانين لا يطرق بابها جور ولا تمايز، إلى أن أتى الجنود بالبنادق فسلبونا حريتنا، جعلونا ننام في رعبٍ ونستيقظ في كابوس، أخذوا منا كل شيء، حتى أخي لم أره ولا حتى أتذكر ملامحه، لا أعلم أحي يرزق؟ أم في تعداد الموتى قد ذهب؟

جئنا في رحلة عذاب، أرضعونا فيها الجُبن والمذلة، ألقوا آبائنا في وسط المحيط لأسماك القرش وجلدوا أمي ورفاقها، باعونا بثمنٍ بَخْسٍ في سوق الرقيق، ذهبنا إلى أسياد لا يتميزون عنا في شيء إلا أنه اختلفت ألواننا وطبائعنا كما اختلفت ديمغرفيا المكان، رأيتمونا أنتم تنهش جثثنا الكلاب في الشوارع وأنتم في صمت، عذبنا بعض منكم وألقونا بالحجارة، وجلدونا بالسوْط وأنتم تنظرون، أما آن الأوان لهذا الضمير أن يستيقظ.

كان الجميع يستمع في ذهول وذرفت دموع أعينهم مما قصت عليهم وأشعلت عواطفهم به من قصص، وغرّد آخرون خارج السرب وهم قليل؛ الفناء للعبيد، الفناء للعبيد.

وقف زميلهم الثالث بعد أن جلست ذات العيون الزرقاء وقال لهم:

سيكتب التاريخ في طياته أنكم أنتم أكثر الناس وعيًا وفكرًا، وأكثر الأجيال تقدمًا، وطننا يتسع الجميع.

وبدأ في هُتافٍ ليرتفع العدل ويسود، وتحركت الجماهير جميعها تهتف في شوارع المدينة تطالب بمساواة العبيد وإعطائهم حقوق كأبناء الوطن، وانضم إليها جميع العبيد في المدينة فتضاعف العدد أكثر وأكثر، فتفاوض الثلاثة مع الحكومة وانشأوا جمعية لتحرير العبيد تتكفل بجمع التبرعات لهم، والدفاع عن حقوقهم، ودفع المال مقابل تحريرهم، وأصبحت ذات العيون الزرقاء رمزًا وطنيًا مخلصًا.